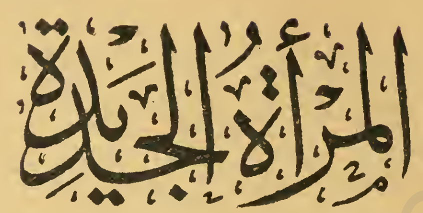

www.alkottob.com





تأليف

المرحوم قاسم امين بك

المستشار بمحكمة الاستئناف



« طبع على نفقة »



مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م



الى صديقى سعد زغلول

فيك وجدت قلباً يحب وعقلا يفتكر وارادة تعمل

أنت الذى مثلت الىّ المودة فى اكمل اشكالها .

فادركت ان الحياة ليست كلها شقاء وانّ فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها

من هذا امكننى ان احكم ان هذه المودة تمنح ساعات احلى اذا كانت بين رجل وزوجته

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لاعلنه لابناء وطنى رجالا ونساء ؟

١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ قاسم امين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المرأة الجديدة هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الانسانى من سلطة الاوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها . ذلك حيث أخذ العلم يبحث فى كل شئ وينتقد كل رأى ولا يسلم بمقال الا اذا قام الدليل على مافيه من المنفعة للعامة . وانتهى به السعى الى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة والغى امتيازات الاشراف ووضع دستوراً للملوك والحكام وأعتق الجنس الاسود

من الرق ثم أكمل عمله بان نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهنّ بان يساوينهم فى كل شئ

كان الاوروبيون يرون رأينا اليوم فى النساء وان امرهنَّ مقصور على النقص فى الدين والعقل وانهنّ لسن الا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان وكانوا يقولون ان « ذات الشعر الطويل والفكر القصير » لم تخلق الا لخدمة الرجل وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التي تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتفوا انهم هم أنفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها وعرفوا ان طبيعتها العقلية والادبية قابلة للترقى كطبيعة الرجل وشعروا انها انسان مثلهم لها الحق فى أن تتمتع بحريتها وتستخدم قواها

وملكاتها وان من الخطأ حرمانها من الوسائل التي تمكنها من الانتفاع منها

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربيـة فى طور جديد وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئاً فشيئاً ونالت حقوقها واحداً بعد الآخر واشتركت مع الرجال فى شؤون الحياة البشرية وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسـة وسماع الوعظ فى الكنيسة وجالستهم فى منتديات الادب وحضرت فى الجمعيات العلمية وساحت فى البلاد . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك — الانثى — تلك الذات البهيمية التي كانت مغمورة بالزينة متسربلة بالازياء منغمسة فى اللهو وظهر مكانها امرأة جديدة هى المرأة شقيقة الرجل وشريكة الزوج ومربية الاولاد ومهذبة النوع !

ـ هذا التحويل هو كل مانقصد

غاية مانسعى اليه هو ان تصل المرأة المصرية الى هذا المقام الرفيع وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال

اللائق بصفتها فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والادب ومن سعادة الحال فى المعيشة وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت

اذا تم ذلك فنحن على يقين لايزعزعه ادنى شك من ان هذه الحركة الصغيرة تكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر

اذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى الى تحقيق آمالنا ان الجمهور من العامة لم يلتفت اليه أو ان بعض الكتاب اظهروا السخط عليه ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا وساخر يقضى عمره فى السفاسف ومفتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟

نحن لانكتب طمعاً فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين اذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلى معناه لا يفهمونه الا اذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه ولا يحبون الوطن الا اذا تمثل لاعينهم فى صورة قبيحة

واخلاق رثة وعادات سخيفة وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع امانينا فى المستقبل فهى التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسئلة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث

لم نر هذه الدفعة حاجة الى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فان ما اوردناه فى كتاب تحرير المرأة من النصوص القرآنية صريح فى اباحة كشف الوجه واليدين ومعاملة النساء للرجال . وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . اما ان فريقاً آخر من الفقهاء استحسن التشديد في الحجاب فهذا رأى لا يلزمنا الدين باتباعه

واذا كان فى هذه المسئلة قولان فمن الصواب ان يرجح القول الموافق للحرية الانسانية وللمصلحة العامة

وقد كتب صاحب مجلة المنار كلمة فى الحجاب نوردها هنا تأييداً لرأينا . قال :

« واما الامر الثالث وهو حكم الشرع فى هذه »
« المكالمة فالمعروف ان الشرع انما حرم الخلوة بالمرأة »
« الاجنبية . واخبار الصدر الاول مستفيضة بمكالمة »
« النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملآء دون الخلوة »
« وكفاك ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهنّ »
« اللاتى امرن بالمبالغة في الحجاب ـ كنّ يحدثن »
« الرجال حتى ان السيدة عائشة كانت قائدة عسكر »
« ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة وما اخال ان مكابراً »
« يقول انها لم تكن تكلم أحداً منهم الا ذا محرم »

هذا هو رأى رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان اهل الازهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلا عن اشتغالهم بالالفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا في شيء مما قلناه

ومن العيب ان الجرائد واصحاب الافكار يرمون كل يوم علماء الدين الاسلامى بانهم السبب فى انحطاط وتأخر الامم الاسلامية عن سواها في المدنية ويصفونهم

بالتساهل فى فهم الدين وعدم مراعاة أحكامه ثم اذا تحركت غيرة لعرض رأى يظن ان فيه خيراً للامة تحولت انظارهم الى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه وغاب عنهم ان الذين يحاربون الاصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم فى تهذيب عقل أو استكمال ادب أو تقويم عمل ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ الا رغم أنفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بابداء رأى فى شأن من شؤون الامة فضلا عن مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشرى

والمطلع على الشريعة الاسلامية يعلم ان تحرير المرأة هو من انفس الاصول التى يحق لها ان تفتخر به على سواها لانها منحت المرأة من اثنى عشر قرن مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية الا فى هـذا القرن وبعض القرن الذى سبق . حتى انها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهي الآن مشتغلة بالمطالبة بها

فاذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية

فى تدبير ثروتها والتصرف فيها وحثت على تعليمها وتهذيبها
ولم تحجر عليها الاحتراف باى صنعه والاشتغال باى عمل
وبالغت فى المساواة بينها وبين الرجل الى حد ان اباحت
لها ان تكون وصيه على الرجل وان تتولى وظيفه الافتاء
والقضاء اى وظيفه الحكم بين الناس بالعدل . وقد ولى
عمر رضى الله عنه على اسواق المدينه نساء مع وجود
الرجال من الصحابة وغيرهم مع ان القوانين الفرنساوية
لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعه المحاماة الا فى العام
الماضى . اذا كانت شريعتنا تحامى عن المرأة الى هذا الحد
وتمنحها هذه الدرجة من الحرية فهل يجدر بنا فى هذا
العصر ان نغفل عن مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التى
تأهل المرأة الى استعمال هذه الحقوق النفيسة ونضيع
وقتنا فى مناقشات نظرية لا تنتج الا تعويقنا عن التقدم
فى طريق اصلاح احوالنا ؟-

لا اظن ان ذلك يليق بنا وأرجو ان كثيراً من القراء
يرون مثل رأينا

المرأة فى حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم الا بعد معرفة حالها فى الماضى . تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية فاننا لا يمكننا ان نقف على حقيقة حالنا فى أى شأن من شؤوننا الا بعد استقراء الحوادث الماضية والالمام بالادوار التى تقلبت فيها وبعبارة أخرى يلزم ان نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم الى أى نقطة نصل

ذكر شيخ المؤرخين هيرودوت ان علاقات الرجل مع المرأة كانت متروكة الى الصدفة ولا تفترق عما يشاهد بين الانعام وكان الشأن اذا ولدت المرأة ولداً ان يجتمع القوم متى وصل الولد الى سن البلوغ وينسبوه الى أشبه الناس به . وهذه العادة كانت معروفة أيضاً عند القبائل الجرمانية وعند العرب فى الجاهلية وقد جاءت روايات

السواح المعاصرين لنا مؤيدة لماجاء به التاريخ فإن جميع
السواح الذين طافوا بلاد تايتى وجزائر مركيز وغيرها
من اقليم استراليا وزيلندة الجديدة وبعض بلاد الهند
وافريقيا ذكروا ان الزواج غير معروف فى تلك البلاد
ولا خلاف فى ان المرأة التى هذه حالها تعيش مستقلة
تعول نفسها بنفسها مساوية للرجل فى جميع الاعمال بل
لها من المزية عليه ان نسب الاولاد يتعلق فى الغالب بها
وحدها فالمرأة فى هذا الدور الاول هى ذات الشأن فى
الهيئة الاجتماعية وربما كانت تشترك فى الدفاع عن قبيلتها
مع الرجل ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات فى
التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة الى الآن فى بعض
البلاد تقضى بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا
القبيل ان ملك سيام له عدد من النساء عهد اليهن حراسته
وكان لملك الداهومية بهانزن الذى استولى الفرنساويون
على بلاه من بضع سنين خمسمائة جندى من الرجال
وخمسمائة من النساء

ولما ودع الانسان بداوته واتخذله وطناً قاراً واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ومن اهم ماساعد على تشكيل العائلة انه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختار من بين اسلافها كما كان جاريا عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين وكما هو جار الى الآن عند الامم المتوحشة وله بقية فى بلاد الصين وكانت العائلة تقدم القربان الى آلهتها فكان هذا باعثاً للرجل علي استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية

وترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانها من استقلالها لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء وهذا امر يعلمه كل مطلع على القانون الرومانى وذكره المؤرخون ورواه السواح المعاصرون لنا . يشترى الرجل زوجته من ابيها فتنتقل اليه جميع حقوق الاب عليها ويجوز له ان يتصرف فيها بالبيع

لشخص آخر فاذا مات انتقلت مع تركته الى ورثته من أولادها المذكور أو غيرهم

ومما يتبع هذه الحال ان المرأة لا تملك شيئاً لنفسها ولا ترث وان يتزوج الرجل بعدة نساء لان الوحدة فى الزواج تفرض المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات . ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعاً بتأثير الحكومة فردت اليها حق الملك كله أو بعضه وحق الارث تماماً أو ناقصاً على حسب الشرائع ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ فى أى بلد من البلاد الى حد انها سوّت بين الرجل والمرأة فى الحقوق فالمرأة فى الهند كانت مجردة عن شخصيتها الشرعية وعند اليونان كانت النساء مكلفات بان يعشن فى الحجاب التام ولا يخرجن من بيوتهن الا عند الضرورة وعند الرومان كانت المرأة فى حكم القاصر وفى مبدإ تاريخ اوروبا عندما كانت خاضعة الى سلطة الكنيسة والقانون الرومانى كانت فى أسوأ حال حتى ان بعض رجال الدين انكروا ان لها روحاً

خالدة وعرضت هذه المسئلة على المجمع الذى انعقد فى ماكون فى سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة ان المرأة انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل وكان من الضرورى ان تعيش تحت قيامة رجل وهو ابوها قبل زواجها ثم زوجها بعد الزواج واحد ابنائها اذا مات الزوج أو احد اقاربها من الذكور أو أقارب زوجها ان لم يكن لها اولاد ولا يجوز لها فى أى حال ان تتصرف بنفسها وكانت غير أهل للشهادة فى العقود ولا للوصاية على أولادها القصر ولا لان تكون حكماً او أهل خبرة وشوهد فى بعض ولايات سويسره ان شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد ولا تزال آثار هذه الاحكام باقية الى الآن في كثير من ممالك اوروبا ذلك لان مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها ان تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو اول

حكومة سياسية ظهرت فى العالم وقد اضمحل ثم زال بعد ان اقام اجيالا فى البلاد الغربية وحل محله النظام الدستورى المؤسس على ان الحاكم ليس له حق على الاشخاص ولا على الاموال الا ما تفرضه القوانين

ولكنه لا يزال سائداً فى الشرق عامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين الى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين

وليس هنا محل البحث عن الاسباب التى وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذى حرمها الترقى فى المدينة وحصر حركاتها فى مدار واحد بدون ان تنتقل من مكانها وانما يهمنا هنا ان نثبت أمراً يتعلق بموضوعنا وهو وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وافقدها وجدان الحرية وبالعكس فى

البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كليا وان لسائل ان يسأل أى الحالتين أثرت فى الاخرى فنقول انهما متفاعلتان وان لكل منهما تأثيراً فى مقابلتها وبعبارة أخرى ان شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعيه

انظر الى البلاد الشرقية تجد أن المرأة في رق الرجل والرجل فى رق الحاكم فهو ظالم فى بيته مظلوم اذا خرج منه ثم انظر الى البلاد الاوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل وان كن لم يصلن الى الآن الى مستوى ما اعد لهن ثم انتقل الى بلاد امريكا تجد رجالا مستقلين فى معيشتهم الخاصة استقلالا تاماً وان سلطة الحكومة وتداخلها في شؤون الافراد يكاد يكون معدوما ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هى فى أوربا بكثير حيث

تساوى المرأة والرجل من البلاد الاميركية فى جميع الحقوق الشخصية وفى بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما أيضاً فى الحقوق السياسية

ففى ولاية يومنج نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ وانى انقل هنا رأى رئيس حكومتها الموسيو شامبل الذى جاهر به فى خطبة القاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال.

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملن »
« حقوقهن السياسية فينتخبن نواب الامة وينبن »
« بانفسهن عنها ويجلسن فى مراكز القضا ويؤدين »
« ما دون ذلك من الوظائف العمومية ومن العدل ان »
« نعترف ان النسا قد قمن بهذه الواجبات الجديدة »
« على وجه من الرزانة وحصافة الرأى وسلامة الذوق »
« لا ينقص عما يقوم به الرجال. وهذه التجربة بالنسبة »
« لقصر مدتها لا تصلح ان تكون دليلا مقنعاً لاثبات »
« استعداد المرأة فى القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل »

« على حسن الظن بفطرة المرأة . وما دام الحال على »
« هذا المنوال فلهنّ الحق في الاستمرار

وبعد تجربة اخرى مدة أربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء فى »
« استعمال حقوقهنّ السياسية وقد أعلنت رأيي فى »
« جلسة سابقة وصرحت بالفوائد التى أظهرتها التجربة »
« والآن اقول ان ما شاهدته فى مدة هذه الاربع »
« سنين اقنعنى اقناعاً تاماً باننا أصبنا فى تخويل النساء »
« حق الانتخاب وان مساواة المرأة للرجل فى الحقوق »
« السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحاً لا يمارى فيه أحد »

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال طاير وقد انتخب من بين أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة نخطب قائلا :

« لقد مضى ثمان سنين والنساء يتمتعنَ فى أرضنا »
« بالحقوق السياسية وكل يوم يمرّ يزيد الاهالى ثقة »

« بالنساء وفى رأيى ان هذه نتيجة حسنة لا بها موافقة »
« لمصالح أمتنا »

ثم بعد ذلك بخمس سنين فى ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هو آت .

« ان مملكة يومنج هى المكان الوحيد الذى تتمتع فيه »
« النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا »
« فرق بين الصنفين وهذا الاقدام من امتنا التى »
« أرشدها صاحب الحق والعدل الى إصلاح خطأ طال »
« عليه الزمن قد وجه انظار العالم الينا . ولئن زعم »
« اخصامنا اننا لا نزال فى دور التجربة فكلنا نعلم ان »
« هذا الدور قد انقضى بالنسبة الينا. وانى اصرح هنا »
« بأن اشتراك النساء فى اعمال الحكومة مع الرجال »
« ترتب عليه ان القوانين عندنا أصبحت أحسن مما »
« كانت عليه وان عدد الموظفين الاكفاء وصل الى »
« درجة لم تمهد لها من قبل وان حالتنا الاجتماعية ارتقت »
« كثيراً وهى الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الاخرى »

« وان جميع المصائب التي كنا نهدد بحلولها مثل فقد »
« النساء رقة الطبع واضطراب النظام في معيشتنا »
« المنزلية لم نر لها أثراً الاَّ في مخيلات خصومنا »
« ان السواد الاعظم من نسائنا قدرن حقوقهنَّ »
« الجديدة حق قدرها واعتبرن القيام بها واجباً وطنياً »
« وبالجملة فاني اقول ان تجربة اثنتي عشرة سنة مع »
« النجاح الباهر قد مكنت في عقولنا ونفوسنا ان »
« مساومة المرأة الرجل مما لا يرتاب فيه »
« كل هذه المقدمات تنساق بنا الى طلب الكمال »
« في حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية يومنج نجماً »
« يهتدى به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالانسان »
« الى ذروة الحرية »

وليس عليَّ ان أضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام الاَّ ان قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولاً به الى الآن في يومنج وان ثلاث ولايات اميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخوَّلت النساء الحقوق السياسية وهي ولاية آوته

و كولورادو وايداهو

اما فى باقى ولايات اميركا فالمرأة لم تنل الى الآن حقوقها السياسية ولكن كل مطلع على حركة الرأى العام فيها لا يشك انها ستنال هذه الحقوق في زمن قريب جداً واليك رأى رجلين من اكبر رجالها السياسيين

قال سميلون العضو فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة: « انى اعتقد ان انتشار الفسق في مدننا الكبيرة لا يمكن ان يضيق نطاقه الا اذا منحت النساء حق الانتخاب»

ومن رأى جيلبير هافيه وهو أيضاً من أعضاء مجلس الشيوخ « ان فساد الاخلاق السياسية لا يصلحه الا اشتراك النساء فى الانتخابات لاننا نعلم ان الخمارة هى مجلس البلدية ومركز الانتخابات وماذلك الا لأن الخمارة هى المحل الوحيد الذى لا تدخل فيه المرأة »

لعل القارئ يستغرب كيف ان الرجال فى امريكا يرون ان لاسبيل الى محاربة الفسق وفساد الاخلاق الا بمعونة النساء . هذا أمر يحتاج الى البيان ولذلك انقل

هنا رأى القاضى الامريكانى جون لينجمان وقد نشر فى سنة ١٨٨٢ فى اهم جرائد اوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء فى الوظائف »
« العمومية اذا اجتمعوا فى مكان لا يخلو جيب واحد »
« منهم من مسدس فاذا قام نزاع خفيف بين بعض »
« الحاضرين لم يكن ينتهى عادة الا بقتل او جرح »
« وكان المحلفون يحكمون فى الغالب ببراءة الجانين فلما »
« اشترك النساء فى الوظائف القضائية مع الرجال نتج »
« عن ذلك معاقبة المذنبين وكذلك كان المحلفون لا »
« يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور فتغير »
« الحال الآن - وقد ترتب على حضور النساء فى »
« الجلسات اننا نرى الآن قاعاتها متحلية من النظام »
« والادب والوقار باكثر مما كان يعرف فيها من قبل
« ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية »
« انهن اهملن ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل الى »
« علمى ان زوجاً اشتكى من زوجته بسبب اشتغالها »

« عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم ار شقاقا بين »
« زوجين بسبب اختلاف ارآئهما السياسية ولم اسمع »
« به على انى اعرف عدة عائلات ينتمى فيها الزوج الى »
« حزب وزوجته الى حزب آخر »

على ان المرأة الامريكانية منحت فى جميع الولايات المتحدة حظاً عظيما من الحقوق العمومية فلها ان تحترف بحرفة المحاماة وتترافع امام جميع المحاكم ويوجد قضاة من النساء فى ولاية كانساس ويومنج وكولومبيه وشيلى وزيلنده وغيرها وعين بعض افرادهن فى وظيفة نائب عمومى ويوجد عدد عظيم منهن فى نظارات الخارجية والداخلية والحربية

اما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية والنساء القسيسات والمهندسات ومديرات الجرائد والمستخدمات فى الرصدخانات والبوستة والتلغراف فلا يكاد يحصى

وتشغل النساء اغلب الوظائف فى ادارة المعارف فقد

بلغ عددهن خمسة وتسعين فى المائة فى المدارس الابتدائية

قال بول بورجيه الكاتب الفرنساوى الشهير في كتاب حديث ألفه عقب زيارته أمريكا فى وصف حال نسائها مايأتى

«اذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن»

« مع الصبيان في مكان واحد والاستاذ الذى يلقي لدرس »

« رجلا أو امرأة بلا فرق واذا دخلت فى معمل علمى »

«وجدت بناتاً محنيات الرؤوس على آلة الميكروسكرب»

« وبجانبهن شبان من طلبة العلم الـكل مشتغل بفحص»

« مسئلة من علم التشريح وبزورك احد مكاتبي الجرائد »

« من غير ان يسمى نفسه فتجد انه امرأة وتروم»

« استدعاء احد الاطباء المشهورين فتجد عدد الاطباء »

« من النساء مساوياً لعدد الاطباء من الرجال وان لم»

« يكن مساوياً فى بعض الجهات فهو من الكثرة »

« بحيث لا يعد التطبب مهن من قبيل النادر »

ويكفى لبيان ارتقاء شأن المرأة الامريكانية ان نقول

انه تبين من الاحصائية التى عملت فى سنة ١٨٨٠ ان النساء المحترفات بالعلوم والادبياب فقط بلغ عددهن خمسة وسبعين فى المائة و ٦٣ فى المائه فى التجارة و ٦٢ فى المائة فى الصناعة

فاذا انتقلنا من اميركا الى انكلترا وهى اقرب الامم اليها وجدنا ان اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريباً عما يشاهد في اميركا فقد نتج من احصائيتها الاخيرة ان مليوناً منهن يشتغلن بالعلوم والادبيات وثلاثة مليون بالتجارة والصناعة

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب فى المجالس البلدية وفى مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى فى المستعمرات الانكليزية كالكاب وكندا واستراليا

اما مسئلة منحهن الحقوق السياسية فهى لا تزال فى دور التحضير واول طلب تقدم من النساء الانكليزيات الى مجلس النواب كان فى سنة ١٧٦٦ وامضى عليه ستمائة

الف امرأة وأول مشروع تقـدم الى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان فى سنة ٦٧ وكان من حسن حظه ان العلامة استوارت ميل هو الذى أخذ على نفسه المدافعة عنه امام المجلس فاكتسب فى الحال ثمانين صوتاً من النواب اذكر من بينهم ديزرائيلى وغلادستون وفى سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانياً ونال ١٥٩ صوتاً وفى سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتاً ومازال يتقدم من حين الى حين ويكسب أصواتاً جديدة حتى توفرت له الاغلبية فى سنة ٩٧ فاقره عليه مجلس النواب ولم يبق لنفاذه الا تصديق مجلس الاعيان

وفى فرنسا لم تصل حركة الافكار فى شأن النساء الى هذا الحد فعدد المشتغلين من النساء بممارسة العلوم قليل وعدد الموظفين فى المصالح الاميرية يكاد يكون محصوراً في مصلحه "البوستة" والتلغراف والتلفون والحرفه التى اتجهت اليها على الخصوص نساء فرانسا هى التجارة وقد خاب ظن فيكتور هيجو أكبر شعراء العصر فى فرانسا

الذى قال (ان القرن الثامن عشر قرّر حقوق الرجال وسيقرّر القرن التاسع عشر حقوق النساء) حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شىء كبير من الاصلاحات التى يطالب بها كثير من رجال فرانسا غير انه فى هذه السنين العشر الاخيرة حصل تقدم محسوس فى حركة الافكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب فى المجالس التجارية وفى العام الماضى صدر القانون الذى يخول النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة

وحال النساء فى الممالك الاوروباوية الاخرى لا يختلف الا قليلا عن حال النساء فى فرانسا

اما مملكة روسيا فمركزها الجغرافى قضى عليها بان تتأثر بالعادات الشرقية ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات كنساء الشرق مسجونات فى البيوت محرومات من التربية والتعليم وليس لهنّ من الحقوق الا ما تسمح به رحمة أزواجهن وأوليائهن ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية الا

فى سنة ١٧٢٦ حيث صدر امر عال من بطرس الاكبر بالغاء الحجاب مرة واحدة ثم تولت بعده الامبراطورة كاترين فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ الى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ونشرت بينهن التربية العقلية والادبية

ولكن لما تولى الملك الكسندر الاول وكان يبغض الحرية وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثانى وكان ميالا الى ترقية بلاده محباً لتقدمها فابطل استعباد الرجال (السرفاج) وانشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليم لابتدائى والثانوى كى يتعلمن فيها العلوم التى يتعلمها الذكور واول مدرسة انشئت على هذا النمط كانت فى سنة ١٨٥٧ ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية ان تقدم النساء فى المعارف له اثر كبير فى حالة الامة السياسية وان حزب المعارضين للحكومة اخذ ينمو فاقفلت فى سنة ١٨٦٢ ابواب المدارس العالية فى وجوه الرجال والنساء ولكن

النساء لم يقبلن ان يرتكسن في الجهل بعد ان ذقن طعم الحرية والعلم فرحل الكثير منهن عن وطنه طلباً للمعارف واخذن يهاجرن الى فرنسا وسويسرا والمانيا لتحصيلها وطفقن في مهاجرهن يطعنَّ في الحكومة وينشرن افكارهن في الكتب والجرائد ويشتركن في المؤامرات مع الرجال فكانت عاقبة اقفال المدارس اشتداد ثورة الافكار عما كانت عليه من قبل ففطنت الحكومة الى هذا الامر وعرفت انها اخطأت فقررت في سنة ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس وقد زاد عددها من ذلك العهد الى الآن زيادة ظاهرة

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة في العالم نلخصه في كلمتين

عاشت المرأة حرة في العصور الاولى حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشيء من الحق ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها

بان لا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامه وتساوى المرأة والرجل فى جميع الحقوق أو على الاقل فى معظمها . أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم

فالمرأة المصرية هى اليوم في الدور الثالث من حياتها التاريخية بمعنى انها فى نظر الشرع انسان حر له حقوق وعليه واجبات ولكنها في نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى كان يخضعنا ونخضع له

ومع ان الاستبداد السياسى أصبح الآن فى حالة النزع وأشرف على الفوات بحيث لا ترجى له عودة لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم

وما سبب ذلك الا أن قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقي وسبقتنا الى ما لم نصل اليه بعد فهي تقرر

ان كل فرد منا له أن يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية لافرق فى ذلك بين الذكر والانثي ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخاً فى طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء

وهذا يدل على ان سلطان الاخلاق القديمة لايزال نافذاً فى نفوسنا وله أثر ظاهر فى أعمالنا فقوانيننا وضعت لامة حرة واخلاقنا لاتزال اخلاق امة مسترقة لهذا نرى رجالا وردوا موارد العلم وتنقلوا من مدرسة الى مدرسة ومن درجة الى درجة حتى فازوا باعلى لقب علمى وفقهاء يعلمون الحقوق وشعراء من نوابغ العصر على ما يقول العارفون بفنهم وكتاباً نصبوا انفسهم لافادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية أو الادبية أو الفنية أو ماشئت من هذه الالقاب وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال رأينا جميع من ذكرنا عندما سمعوا القول بان للمرأة حقاً معصوماً وانها انسان محروم أخذوا يتساءلون هل يسوغ لها ان تخرج من سجنها أو يرفع عنها غطاء من جهلها وبعد

طول التساؤل رجعوا الى ما هو مركوز فى طباعهم فانكروا عليها هذا الحق وحكموا عليها بان تبقى فى ظلمات الجهل وفى السجن المؤبد ! !

فهل كان ذلك لان المسئلة عويصة تحتاج الى العناء فى حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلا وانما نحن نتصور الحرية ولا نشعر فى الحقيقة بحبها ونعرف حق الغير ولا نجد من انفسنا احتراما له . نحن فى دور التمرين على العمل بالاخلاق الحرة ونحتاج الى زمن طويل لترسخ فى نفوسنا

اما الاوروباويون فانهم يقدرون الحرية حق قدرها ويحبونها ويحترمونها فى غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها في أنفسهم

وهذا شأن من له احساس حقيقى بمزية فضيلة من الفضائل فانما الفاضل من يجل الفضيلة اينما كان مظهرها

قال كوندورسيه الاصولى الشهير فى هذا المعنى :

« اما أن لا يكون حق حقيقى لاحد من الناس واما ان يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر ومن جرد غيره

من حقه مهما كان دينه أو لونه أو صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه . »

لهذا يشتغل محبو الترقى فى اوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق ما وصلت اليه الآن وآلوا على انفسهم ان يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع الحقوق الانسانية

ولا انكر ان عدداً غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل في صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين

فهناك مذهبان يتزاحمان أحدهما يكتفي بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق والثانى يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين

هكذا انقسم العالم الانسانى فى كل أمر الى فريقين فريق المحافظين وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان فى طرق الخير وسبل السعادة

ومن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الازمان يعلم علم اليقين ان المرأة فى كل زمان وفى كل مكان قائمة

بوظيفتها الطبيعية ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى منقلة من منزلة الى ارقى منها ومن مرتبة الى ارفع منها

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بتغير حالها فى الماضى وتهيئها الآن للانتقال من طورها الحالى الى طور آخر . وبالجملة فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشأه ان الغربيين فهموا طبيعة الانسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا انفسهم من الحقوق فى جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها احد منهم فى حق التمتع بحريتها فى الاعمال البدنية والعقلية الا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل فى كل ذلك وانما اختلفوا فى مسئلة مساواتها بالرجل فى الحياة العامة فيرى بعضهم ان اشتغالها بالاعمال العامة يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه

الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرَّروا المساواة بينها وبين الرجل ايضاً فيما يتعلق بالحياة العامة

أما نحن فاننا لا ننظر الى المرأة نظرنا الى الرجل ولم تستعد عقولنا الى ادراك هذه الحقيقة الظاهرة وهي ان المرأة انسان مثل الرجل فجردناها عن استعمال جميع حقوق الانسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة أما اشتغال المرأة بالاعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبنا في هذا الكتاب ولهذا لا نرى فائدة فى الكلام فيه وأما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذى نقصد البحث فيه وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل الاولى حرية المرأة ـ الثانية الواجب على المرأة لنفسها الثالثة الواجب على المرأة لعائلتها ـ وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلى ذلك مبحث فى التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوى على حالة الافكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء

حرية المرأة

لم يخطأ قدماء الفلاسفة فى مسألة خطأهم فى معنى الحرية الانسانية وذلك انهم كانوا يعتقدون ان الله خلق الناس على قسمين قسم ميزه بالحرية والقسم الآخر قضى عليه بالرق

وكانت معيشة الاحرار بعيدة عن الاستقلال الذاتى ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة

والتاريخ يحدثنا بان الحكومة فى تلك الاعصر الخالية كانت تتداخل فى كل مايتعلق بالحياة الخاصة وكان لها الشأن الاول فى نظام العائلة والتربية والديانة والاخلاق والعواطف حتى انها كانت تحدد فى المعاملات التجارية اثمان البضائع . وقد وصلت بها الاثرة بالتداخل فى شؤون الحياة الخاصة الى حد ان قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهنَّ الا فى

احوال مبينة . فكانت العيشة الاجتماعية هى أشبه شىء بالعيشة العسكرية يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين الا ان يطيعوا اوامره

ولما تقدم العالم فى المدنية تخلص الفرد شيئاً فشيئاً من سلطة الهيئة الاجتماعيه ووسع فى دائرة حريته وانعكس الامر فما كان فى السابق اصلا عاماً اصبح الآن من المستثنيات . ومن ثم صارت غاية التمدن ان ينال الفرد اقصى مايمكن من الاستقلال والحرية

ذلك لان الانسان ترقى فى فكره فهو يرى ان تسليم نفسه الى تصرف الحاكم امر لاتسلم به منزلته من الانسانية ولا يتفق مع راحته وسعادته . ولهذا فهو لا يقبل ان يتنازل لاحد عن حريته ولا ان يأتمن احدا عليها ولو كان اقرب الناس اليه ولا يسمح بان يترك منها الى الحكومة الا بقدر مايلزم تركه لتتمكن من تأدية وظيفتها وهى المحافظة على الامن العام فى الداخل والمدافعة عن سياج الامة فى الخارج . وايضا القيام بالاعمال التى تعود

منفعتها على الجميع

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد الى ماتقرره عليه من الاعمال والاموال أما اذا أرادت الحكومة أو أى فرد من الناس أن يدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شؤونه الخاصة فانه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد في نفسه ألم الظلم

ولذلك سببان

الاول ان رأى الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف أهواء الاغلب لان الامزجة مختلفة والغرائز متباينة والاذواق متفاوتة على حسب الاشخاص والاعمار والازمان والامكنة فوضع قاعدة واحدة لجميع الاعمال الخاصة بكل فرد لايسهل على الطبائع البشرية قبوله . والثانى مادلت عليه التجارب من ان تداخل الحاكم فى الشؤون الخاصة للافراد يضعف من قواهم ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل والاتكال على الغير وهو وان اشعر

بعض النفوس لذة الكسل والخلود الى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة

فالحرية هى قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة ولذلك عدتها الامم التى أدركت سر النجاح من انفس حقوق الانسان

ومن المعلوم ان المقصود من الحرية هنا هو استقلال الانسان فى فكره وارادته وعمله متى كان واقفاً عند حدود الشرائع محافظا على الآداب وعدم خضوعه بعد ذلك فى شئ لارادة غيره اللهمَّ الا فى أحوال مستثناة كالجنون والطفولية حتى بالنسبة للاطفال رأى علماء التربية الصحية ان الضغط على الاطفال مميت لعزيمتهم ورجحوا أن يترك الطفل يتصرف فى نفسه بحريته وانما على والديه ارشاده ونصحه

فهذه الحرية على مابها من سعة هي التى يجب أن تكون أساساً لتربية نسائنا

يتعجب بعض الناس من طلبى تخويل الحرية للنساء

ويتساءلون هل هنّ فى قيد الرق ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا فى الرأى

ليس مرادنا ان نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى فى الاسواق ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذى يباح الاتجار به فقط بل الوجدان السليم يقضى بان كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكا تاماً فهو رقيق

لا اظن ان القارىء المنصف يختلف معى فى الرأى ان قلت ان المرأة فى نظر المسلمين على الجملة ليست انساناً تاماً وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ويجرى فى معاملته معها على هذا الاعتقاد والشواهد على ذلك كثيرة

فليس من الادب فى كثير من العائلات ان لا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الادب ان يجلس النساء مع الرجال ولا من الادب ان يأكلن معهم وقد رأيت مراراً بعينى ان الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد فى الغالب فى بعض الطبقات خصوصاً فى بلاد الارياف لكن استعباد المرأة فى الطبقات الاخرى وفى المدن موجود على اشكال أخرى

فالرجل الذى يحجر على امرأته ان لا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته فى ان لاتخرج لايحترم حريتها فهى من هذه الجهة رقيقة بل سجينة والسجن أشد سلباً للحرية من الرق ـ ولا يقال ان عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلا فانه وان قل بالنسبة الى الماضى لكن كلنا نعلم ان من النادر جداً ان تكون المرأة متروكة لارادتها واختيارها فى ذهابها وايابها على ان كلامنا الآن انما هو فى مقام المرأة فى نفس اغلب الرجال وما يجب عليها فى اعتقادهم ان تعمل به وان تكون عليه فسواء قل احتباس المرأة أو لم يقل فالمرأة المقصورة فى بيتها التى لاتفارقه تعتبر عندهم خير امرأة

ولو أخذ المسلمون برأى الجهال من فقهائهم وهم اهل

الرأى عندهم لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وان لا يسمحوا لهنّ بالخروج الا لزيارة الاقارب فى العيدين ورأوا من الافضل أن لا تخرج من بيتها فى جميع الاحوال وقد عدوا من مفاخرهم ان لا تخرج المرأة من خدرها الا محمولة الى قبرها ؟

ولا شك ان تقرير الحق للرجل فى سجن زوجته ينافى الحرية التى هى حق طبيعى للانسان

والمرأة التى يسوقها والدها كالبهيمة الى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئاً من أحواله معرفة تسمح لها بان تتبين حقيقة أمره وتحصل لنفسها رأيا فيه لا تعتبر حرة فى نفسها بل تعد فى الحقيقة رقيقة. ومن المعلوم ان عموم الآباء فى جميع طبقات الامة يزوجون بناتهنّ على هذه الطريقة فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج اما هنّ فلا رأى لهنّ فى هذا الامر الخطير الذى تتعلق به سعادتهنّ وشقاوتهنّ في المستقبل . ولا يقال ان حال الرجل فى ذلك كحال المرأة اذ هو أيضاً لا يعلم من أحوال

خطيئته شيئاً لان الرجل يمكنه ان يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها فى أى وقت شاء او يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع أما المرأة التى تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها الى الخلاص منه سبيل. فتزويج المرأة برجل تجهله وحرمانها حق التخلص منه مع اطلاق الارادة للرجل فى امساكها وتسريحها كيف يشاء هو استعباد حقيق

والمرأة التى يجب ان لا تتعلم الا فروض العبادة كما يقول الفقهاء ومن اخذ عنهم او يجب أن لا تتعلم الا مقداراً محدوداً من مبادئ بعض العلوم تحسب رقيقة لان قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو الى ان تبلغ الكمال الذى أعدت له يعد استعباداً معنوياً

والمرأة التى تلزم بستر اطرافها والاعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشى ولا من الركوب بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم الا بمشقة تعد رقيقة لان تكليفها بالاندراج فى قطعة من قماش انما يقصد منه ان

تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الانسانى الطبيعى فى نظر كل رجل ماعدا سيدها ومولاها

وبالجملة فالمرأة من وقت ولادتها الى يوم مماتها هى رقيقه لانها لاتعيش بنفسها ولنفسها وانما تعيش بالرجل وللرجل وهى فى حاجه اليه فى كل شأن من شؤونها فلا تخرج الا مخفورة به ولاتسافر الا تحت حمايته ولا تفكر الا بعقله ولاتنظر الا بعينه ولا تسمع الا باذنه ولا تريد الا بارادته ولا تعمل الا بواسطته ولا تتحرك بحركة الا ويكون مجراها منه فهى بذلك لاتعد انسانا مستقلا بل هى شيء ملحق بالرجل

انظر الى صبي لايزيد عمره عن خمس عشرة سنة وقارن بينه وبين والدته تجد انها احط منه فى العقل والمعلومات والتجارب وانه أكبر منها شأنا ليس فقط فيما يتعلق بالامور الخارجه عن المنزل بل فى نفس بيتها . كيف لا وهو الذي يأمر وينهي فيه وهو الذى ينوب عنها فى اشغالها وادارة بيتها وتدبير ثروتها

انظر الى امرأة تمشي في الطريق ومعها خادم تجد في نفسك لأول وهلة ان الخادم يشعر من نفسه انه هو صاحب الارادة والرأى والقوة يمشى امامها وهى وراءه وكأن لسان حاله يقول انى أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها

لاحظ ان امرأة محجبة تمر على جماعة من اهل الخلاعة تجد انهم لا يتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالادب وفى بعض الاحيان يترامون عليها باجسامهم ويلمسونها بايديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها او تغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الافعال القبيحة . لم تصبر المرأة على مثل هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث الى دفاع ولم لا يجرأ هؤلاء الرجال على اتيان ما يأتونه من الاقوال والاعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لان المرأة المبرقعه اشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا . وانما وقر فى نفوس الرجال

عندنا ان البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ورأوا فى عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ولا تحس باحترامها لنفسها وانها سهلة القياد لينة المغمز تتبعه لاول اشارة يبديها او كلمة يرميها وانها تخشى الرجل ولا تجرأ على تأديبه فاستخفوا بها وتجاسروا على امتهانها وتعودوا على ان لا يحترموا امرأة مبرقعة الا اذا وجد معها رجل ولو كان خصيا !

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس انسان ؟

سيقول قوم كيف لمدع ان يدعى ان المرأة مستعبدة عندنا مع انا نراها فى مكانة من السلطان على قلب الرجل منا بحيث تسخره لارادتها وهواها وتصرفه فى اعماله لقضاء رغائبها وان الرجل ليتجشم الاسفار ويتردد بين المدينة والاخرى لينتقى لزوجته لباساً أو يختار لها نوعا من انواع الحلي يرضى به هواها ويقضى به رغبتها ليستجلب رضاها ثم هى سيدة بيته لا يقع فيه الا ما

رفعت ولا يضع فيه الا ما وضعت فهل مع هذا كله يقال ان المرأة مسترقة للرجل ؟ نعم لا ننكر شيئاً من هذا كله ولكننا ننكر ان يكون ذلك عاماً عند جميع الناس كما ننكر انه ناشيء عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والادب وبما كسبته من حق الصحبة الناشيء عن عقد الزواج . وانما يرفع المرأة احياناً الى تلك المنزلة افراط فى الشهوة من الرجل يحدثه براعة فى الجمال او تفنن في ضروب الاحتيال . فهى سيدته ما تعلقت بها شهوته فاذا خمدت نيران الشهوة وعاد ما بينهما الى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من اوج عزتها الى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق

سيقال ايضاً ان حرية المرأة تستلزم فى الواقع ان يعاملها الرجل بالاحترام وان لا يضغط على ارادتها وفكرها وان يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم . فالجواب ان لزام النساء بالاحتجاب هو اقسى

وأفظع اشكال الاستعباد . ذلك لان الرجل فى اعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء أما بالشراء كما بيناه وأما بالاختطاف

وفى كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك ان الرجل جرد امرأته عن الصفات الانسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهى ان تمتعه بجسمها فاقرها فى مسكنه وألزمها بان تلازمه ولا تخرج منه حتى لا يكون لأحد غيره حظ فى ان يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث . شان المالك الحريص على ملكه الذى يريد ان يستأثر بجميع مزايا المتاع الذى يملكه

ولما كان من المحال ان لا تعرض ضرورة تقضى على المرأة بالخروج من منزلها فى بعض الاحيان أراد ان يتبعها بالحجاب حيث سارت فالزمها بستر وجهها اذا خرجت

هذا الحجاب الذى قرره الرجل فى الاصل الى زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والامهات والاخوات

والى عموم النساء لان كل امرأة هى زوجة او كانت زوجة أو مستعدة لان تكون زوجة

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم وأثر من آثار تلك الاخلاق المتوحشة التى عاشت بها الانسانية أجيالا قبل أن تهتدى الى ادراك ان الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها انثى كما اهتدت الى أن تفهم ان سواد البشرة ليس سببا لان يكون الرجل الاسود عبداً للابيض

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذى أوجده أى بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل فقد جرت سنة الله فى خلقه بان الانتقال من طور الى طور آخر لا يكون دفعة واحدة وانما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعا لها فكثيراً ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها منتقلون الى غيرها متحولون الى أردأ أو أحسن منها وهم لا يشعرون . حتى اذا انتهت

الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذى كانوا من قبل ينكرون

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء فى حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان لكنه ناقص غير تام . كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالامس مساوية له اليوم فحسن لديه ان يضعها فى مرتبة اقل منه في الخلقة . وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم ان تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بان تقصر فى بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها او تخدعهم بحيلها وانها ليست اهلا للرقى العقلى والادبى فيلزم ان تعيش جاهلة

وذلك هو السر فى ضرب الحجاب وعلة بقاءه الى الآن فاول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة هو

تمزيق الحجاب ومحو آثاره

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هى الحجة التى اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا ان نبحث فى طبيعة المرأة لنعلم ان كانت كما يقال احط من طبيعة الرجل ام لا

اذا سألنا الرأى العام فالجواب سهل معلوم . ولكن الرأى العام لا يصح ان يكون له صوت فى مسئلة علمية كهذه . لان مبنى الرأى العام القضايا المشهورة التى صاغتها العادة وقررتها الالفة بدون بحث ولا تنقيب فهى مرجع العامة فى احكامها يردون اليها كل حادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون اسبابه والرأى العام يعتبر ان تغيير كل عادة الفها مخالف للطبيعة لانه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن ان ما هو حاصل الان كان كذلك وسيبقى الى الابد

ولا ريب ان المرأة اليوم احط من الرجل فى الجملة ولكن علينا ان ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو

ناشئة عن طرق تربيتها . تلك هى المسئلة التى يلزمنا لحلها أن نرجع الى الاصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها

رأى العلماء انه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الانسانى بآثارها التى صدرت منها الى الان . وانما يصح ذلك بعد ان تملك من حريتها ما يملك الرجل وبعد ان تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التى قضاها الرجال فى تربية ملكاتهم العقلية والادبية غير انهم حكموا بان المرأة ليست مثل الرجل فى الخلقة وانه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ولكن ليس فى هذه الاختلافات ما يدل على ان أحد الصنفين ارقى من الآخر أو احط منه

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة جاك لوربيت فى كتابه المسمى المرأة امام المعلم

وقال الاستاذ فرشلو : « انى القيت دروسا كثيرة فى العلوم الحسابية وعلوم الاخلاق والفلسفة لطلبة العلم

وكان بينهم كثير من النساء والذى شاهدته بنفسى هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين وكانت دائما نسبة الدرجات بينهما واحدة . »

وقال العلامة مانتجازا المدرس لعلم الانسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطلليانى فى كتاب جديد سماه فسلوجيا المرأة « جميع المناقشات التى تدور على خفة مخ المرأة فى الوزن وصغر جمجمتها وضعف اللفايف المخية تلك المناقشات عبث اذا أريد ان يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما اكفر الرجل الجاءه كبره ان يزور حتى فى علم »
« التشريح فلم يكتف بان يغتصب المحل الاول فى العالم »
« بل اراد ان يبرهن ان المرأة أقل منه فى الانسانية »
« وانها فى مرتبة بين القردو الانسان . ولهذا فيكون »
« له الحق فى ان يجردها عن الحقوق التى منحها نفسه »
« كانه نسى ان الذات التى يريد ان يحط بقدرها هى »
« امه . والحقيقة ان المرأة امام علم التشريح ليست اقل »

« من الرجل ولا ارقى منه وانما تختلف عنه لان لها »
« وظايف تقوم بها غيروظايف الرجل

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التى توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف فقال ما ملخصه : ان السبب فى اهمّ ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الادبية هو الاستعباد الذى استولى على المرأة زمانا طويلا حيث تغلب الرجل على المرأة فى الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفى الطبقات الاخرى بعلومه معارفه وتربيته . وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بان تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها ويظهر ان الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات فى اعماله. ولكنها تمتاز عليه فى قوة الاحساس وتحمل الآلام وهى تصبر على الامراض والعمليات الجراحية صبراً يعجز عنه الرجل وربما كان السبب فى ذلك انها اقل اثرة من الرجل او انها اعتادت على الاستسلام والخضوع

وتمتاز المرأة على الرجل ايضاً بانها اضعف شهوة

منه فالحب عند الرجل ميل شهوانى الى استيفاء اللذة الجسدية والحب عند المرأة وداد قلبي غايته امتزاج الروحين واستدلّ على ذلك بان الرجال يستعملون جميع انواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهنّ والكثير منهن مع ذلك يدافع عن عرضه ويتغلب على شهواته وقال انه اذا عكس الامر وفرضنا انه أبيح للنساء ان يستعملن مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل ان يحافظ على عفته

وقال ان حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة اما الرجل فيسود عنده حب النفس لذلك تراه يفتكر اولا فى نفسه ثم فى اولاده بخلاف المرأة فهى تفتكر اولا فى غيرها ثم في نفسها فهمّ الرجل ان يكون سعيداً وهمّ المرأة ان تجعل الغير سعيداً. وهذا الاحساس يشاهد فى جميع أعمال الحياة صغيرها وكبيرها وأعظم مثال لايثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الام لولدها. فهى تحبه اكثر مما يحبه أبوه وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن

ان يقال انه كلما كان ولدها سيء البخت زاد حبها له والاب على عكس ذلك

فالمرأة فى رأى أعظم العلماء وادقهم بحثاً مساوية للرجل فى القوى العقلية وتفوقه فى الاحساسات والعواطف وانما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما فى العقل لان الرجال اشتغلوا اجيالا عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فانهن حرمن من كل تربية فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعى لا طبيعى . لا نريد بهذا التساوى ان كل قوة فى المرأة تساوى كل قوة فى الرجل وكل ملكة فيها تساوى كل ملكة فيه ولكنا نريد ان مجموع قواها وملكاتها تكافئ مجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما لان مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر

فعلى أى دليل علمى يستند الرجال لاستعباد النساء وباى حق جاز لهم ان يحرموهن من حريتهن؟ لنفرض

جدلا ان عقل المرأة اقل من عقل الرجل فهل نقصان العقل فى شخص يبيح ان يجرد من حريته؟ أما يوجد بين أفراد الرجال اختلاف فى العقول اكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء؟ أليس عقل المصرى يختلف باختلاف طبقات الامة المصرية ومع ذلك نرى جميع الرجال متساويين فى تمتعهم بحريتهم البدنية؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هن اكبر عقلا واكمل اخلاقا من ازواجهن أو ابائهن أو ابنائهن؟

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سببا لتجريد الانسان عن حريته بل الذى يجر اليه الاختلاف انما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع أو تسود ارادة على ارادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها

وما قررته الشريعة الاسلامية من حقوق المرأة وقد اشرنا اليه فى ما تقدم يقودنا الى ان هذه السلطة الادبية هى التى ترمى اليها الآية الشريفة التى ذكرت ان الرجال قوامون على النساء. وقد نحت الشرائع الاوروبية

هذا النحو نخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ومع ذلك فكل انسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن

لنفرض جدلا ايضا ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفى ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟

اذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة الى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا الى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟

نرى ان مسئولية المرأة فى هذه الدنيا وفى الآخرة لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل ونرى ان القوانين لا تعافيها من العقوبات اذا ارتكبت جريمة ولا تقضى بتخفيف عقوبتها بل نرى ان الرأى العام جسم مسئوليتها

حتى جعلها اشد من مسئولية الرجل فاذا استهوى رجل عمره اربعين سنة بنتا عمرها خمسة عشر سنة وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأى العام ان هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها ويهمل شأن الرجل كانه لم يأت منكراً أليس ذلك لان الشرع والرأى العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن اعمالها؟ فان كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لان الشرع والرأى العام يعترفان أيضا بانها حرة مختارة ؟

لا أظن ان عقلا يقبل ان تعتبر المرأة انسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ثم تعتبر انها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها فى شؤون الحياة العادية !

اعتقاد الرجل ان امرأته اذا منحت حريتها تسىء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها لانه لا يباح لانسان ان يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على ارادته بحجة انه يريد منعه من ارتكاب خطيئته ولو جاز لدفع

ضرر محتمل الوقوع تجريد الانسان عن حريته لوجب وضع تسعين فى المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعاً لهم من الفساد

بل لو قبلت المرأة ان يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاما صحيحاً بحيث يمتنع عليها بعد ذلك ان تحل عقدته لانه التزام باطل لمنافاته للطبيعـة البشرية والقواعد الشرعية

على ان ماقيل ويقال من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له يبطله التجـارب وينبذه العقل اذ التجـارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على ان حرية النساء تزيد فى ملكاتهن الادبية وتبعث فيهن احساس الاحـترام لانفسهن وتحمل الرجال على احترامهن

ولا نذهب فى تأييد هذا الرأى مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم فى الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ونسب فيه الى أحد العلماء انه شاهد

ان المرأة الالمانية تخون زوجها سبع مرات ؛ والبلجكية ست مرات واربعـة أخماس المرة ؛ والهولندية أربع مرات ؛ والطليانية مرة وخمسة أسداس؛ والفرنساوية مرة واحدة !! وهكذا الى أن وصل الى التركية والمراد بها الشرقية فقال انها لا تخون زوجها الا عشر المرة الواحدة ؟!!

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاء الى الاعتقاد بان مانشر فى تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من «الابحاث العلمية الدقيقة المستندة على الارقام» ولم يمر بفكره ان الحصول على احصاء فى مثل هذا الموضوع هو من الامور المستحيلة لان وقائع الزنا لا يمكن احصاءها الا اذا وصلت الى المحاكم ومعلوم انه لا يصل الى المحاكم منها الا النادر

ولا نسند رأينا أيضاً الى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل كما يفعل أولئك الذين يدعون ان المرأة متى جلست مع الرجال فى مكان واحد مدة خمس دقائق

وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات . فان كل
قضية لا ترجع الى احد انواع البديهيات المعروفة عند
اهل النظر لا تصح ان تكون مقدمة لدليل اولئك جماعة
لو طوالب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وجد فى
خزانة مخه الا ان الرجل والمرأة هما دائما فى طوع شهواتهما
هكذا شأنهم يستملون من انفسهم الاخلاق التى جبلوا
عليها ويعتقدون انها اخلاق الانسانية كلها فهم فى نظر
انفسهم يمثلون الرجل من حيث هو والمرأة على حالتها
المعهودة اليوم تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى . وما
دروا ان الرجال يختلفون فى اخلاقهم ومزاياهم الى ما
لا نهاية له على حسب الزمان والمكان وطرق التربية
وان المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به
الرجال

هذا الاختلاف الذى يعرض فى حياة النساء الادبيه
ينشأ غالبا من اختلاف العادات

اول شئ يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو ان

تكون عفيفة ولهم الحق فى ان يطلبوا منها ان تكون متحلية بهذه الفضيلة ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذه الفضيلة وجعلها من المستحيلات. وذلك لان نظام المعيشة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل الى الشهوات فان سجن المرأة والتضيق عليها فى وسائل الرياضه يعرضها دائماً لضعف الاعصاب ومتى ضعفت الاعصاب اختل التوازن فى القوى الادبيه. هذه حقيقة يلزم ان يعترف بها كل انسان فان من الحقائق الثابتة ان الجسم اذا كان قويا وكان القلب يرسل الدم الى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الانسان بقوتها فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهى لا تضعف عن مقاومة الاهواء والنزعات الرديئة ومن المشاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور فى الجسم وانحلال فى القوى يؤثران فى الارادة وفى العزيمة فكما اذا حاول الجسم نهوضاً لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل الى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط أهوائها ومقاومة

كل ميل تقتضى مدافعته جهداً ومشقة

لا شك ان قوة البنية وسلامة الاعصاب هما من اهم أعوان الانسان على ضبط نفسه وان ضعف البنية واعتلال الاعصاب هما من اهم الاسباب التى تجعل الانسان آلة تذهب بها الشهوات والاهواء

فان كانت حاجة الى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فانى انقل ماقاله رجل اجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلورى

قال فى كتابه المسمى جسم وروح الولد: «ان آلة العقل هى المخ فكل انحراف يعرض فى الصحة البدنية يؤثر فيه فاذا استوفينا شروط صحة الجسم امكنا ان نحصل سلامة الارادة وقوة الحكم ونحسن فى أخلاق المرء وآدابه»

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شىء نساء مريضات ولهذا فهن أشد تعرضاً لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتى يتمتعن بحريتهن

فاذا اقترن الحجاب بالبطالة ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها تبعهما قتل كل فضيلة فى نفس المرأة

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل اوقاتهن وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سبباً فى تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها الى امور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا الا تقرير الحقيقة كما هى نحن نقول ان وجود الواجبات شىء والقيام بها شىء آخر وان نساءنا اللاتى لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لازواجهن واولادهن وانهن تركن شؤون الحياة البيتية الى غيرهن بخلاف النساء الغربيات التى اتسعت دائرة اعمالهن حتى كادت تساوى دائرة اشغال الرجال فانهن يجدن مع ذلك الوقت الكافى لتأدية جميع واجباتهن المنزلية . وما سبب ذلك الا ان العمل يدعو

الى العمل والراحة تدعو الى الراحة

ثم ان الطريقة التى يربى بها الاطفال فى البيوت لها مدخل عظيم فى انحطاط الآداب أيضاً

يمكننى ان اجاهر هنا بلا تردد ان صبياً من أولادنا ذكراً كان أو انثى لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد الى ذهنه من الالفاظ والصور المحركة للشهوة وينمو فى قلبه من الميل مع ما تدعو اليه غريزة التناسل ويبلغ من ذلك مالا يبلغه شاب أو شابة فى سن الخامسة عشر أو الثامنة عشر من ابناء البلاد الاوروبية

وليس لاختلاف الاقليم دخل فى ذلك وان كان له أثر فهو أثر ضعيف وانما الاثر الحقيقى فهو لطريقة تربية الاطفال

لو كان الرجال الاذكياء والمتعلمون منا يلاحظون مايقع ويقال امامهم كل يوم لو كانوا يفتكرون فى ما يعرض على اعينهم وآذانهم فى الطرق والمجتمعات فى كل آن لاتفقنا جميعاً فى هذه المسئلة وغيرها من المسائل

الاخرى التى لا سبب لاختلاف الرأى فيها الا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام احداً منا بان يفهم مايقول الآخر

لو امكنا ان نفصل جميع المؤثرات المادية والادبيه التى تتكون منها احساسات الطفل واميالهلرأى القارئ بنفسه ان البنت التى تربى فى عائلة مصرية لا يمكن ان تنمو فيها خلال الفضائل ويكفينا ان نذكر هنا امثالا من هذه المؤثرات التى تقع فى العائلات المتوسطة التى هى أحسن الطبقات ادباً :

فمنها ان اقارب الاطفال لا يتحاشون غالباً عن تسمية كل شىء باسمه الحقيقى ويذكرون الوقائع التى تجرى بين الزوج وزوجته أمامهم بدون ان يخطر على بالهم ان يأمروهم بالخروج فى هذا الوقت الى مكان آخر وأيضاً أول شىء يأتى على لسان الزائر اذا صادف بنتاً صغيرة فى بيت هو أن يسألها اذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنه الصغير واذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن

اعجبها من بينهم .

ومنها حضور الاطفـال فى حفـلات الافراح ومشاهدتهم رقص الباغيات وسماعهم الاغانى التى تدور كلها على الحب الشهوانى

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيره الى ما كان يجب ان تغفل عنـه وينبت فيهـا الميل الشهوانى .

ثم اذا عرض ان بنتاً عانقت صبياً فى اثناء اللعب يوجه اللوم عليها من اهلها ويقال لها انها اتت امراً فاضحاً فاذا سألت البنت اى عيب فى ما فعلت اجابها المسئول بما يعن له وما تسمح له به تربيته وكلما تقدمت الصبية فى السن زاد الحجر عليها وابعادها عن مخالطة الرجال وفى هـذا من استلفات ذهنها الى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها الى البحث فى هذا الامر الذى يشغلها ويشغل اهلها الى هذا الحد فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها فتتعلم منهن بعضه وتشتغل مخيلتها بفهم الباقى

فهذه المعيشة التي تمر على البنت واهم مافيها عندها الرجل وأحواله ونسبتها اليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه هي بلا ريب اعظم مؤثر في مزاجها لانها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الاول في حياتها

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا وشعورهم بان النساء لا هم لهن ولا شاغل لعقولهن الا شأنهن مع الرجال لا ترى رجلا بين المصريين يأمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل اجنبي عنها . وفي بعض البيوت لا يأمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته ان تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضراً معهما وكذلك في كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته

وليس من رأيي ان اعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض الى هذا الحد. لان عوائدنا واخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بان لا يثق بعضهم ببعض وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخلق ولا من

حسن الادب أدنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش ولكن ليسمح لى القارئ ان آتى علي بقية فكرى فأقول :

بقى الحجاب الى الآن مستمراً للاسباب التى بيناها اى لانه كان تابعاً لهيئتنا الاجتماعية الماضية من الجهة السياسية والعقلية والادبية : كنا محكومين بالاستبداد فظننا ان السلطة العائلية لا تؤسس الا على الاستبداد فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج واستعملنا فى تربية اولادنا الامر والنهى والاخافة والضرب . وكنا جهالا فتخيلنا ان المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها الا ان تكون موضعاً لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته وفاتنا انها هى أيضاً انسان مثلنا وان لها الحق فى ان تسعى الى طلب سعادتها بالوسائل التى وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم فلما اسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه . فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت

اخلاقنا وفسدت تربية أولادنا واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا ان حياة الامم الاسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبق لها فى التزاحم العام نصيب من النجاح وأخذوا يتباهون بالمدنية الاسلامية القديمة كلما تحدث الاوروبيون بعلومهم وفنونهم ويفتخرون بالتمدن العربى فى الاعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربي الحديث كما تسلى نفسها عجوز وصلت الى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها

لكننا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييراً كلياً فاصبحنا أحراراً ونحب الحرية وبدأ التعليم الصحيح فى ان ينتشر بين افراد امتنا وتهيأت عقولنا الى ادراك منزلة الانسان في الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم فهل يليق بنا بعد هذا ان نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة اويكون من الاليق بنا ان نبحث عن وسيلة اخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التى انتقلنا

اليها ويكون من شأنها ان ترتقى بنا الى ماهو خير منها؟
وبعبارة أخرى يوجد مذهبان احدهما ينصح الناس بالتمسك بالحجاب والثانى يشير عليهم بابطاله فاى هذين المذهبين يجب ان نختاره وماهو رائدنا فى الاختيار حتى لانقع فى عاقبة الخطاء؟

اذا استخدمنا عقولنا واتخذنا الفكر السليم رائداً لنا فلا شك انا نختار المذهب الذى يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ولا نخشى بعد ذلك ان يقع اختيارنا مخالفاً للحق والصواب لان المنافع الصحيحة التى تقوم على قواعد الفكر السليم هى من الحق الذى يدافع عنه الشرع ومن المستحيل ان حقاً من الحقوق التى يدافع عنها الشرع يكون منشأ لضرر يعود على الناس اوان فضيلة من الفضائل يكون شرها اكبر من نفعها

فاى المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا؟
اما الحجاب فضرره انه يحرم المرأة من حريتها الفطرية . ويمنعها من استكمال تربيتها . ويعوقها عن

كسب معاشها عند الضرورة . ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والادبية . ولا يأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن . وبه تكون الامة كانسان أصيب بالشلل فى احد شقيه

ومزاياه تنحصر فى امر واحد هو انه يقلل الزنا حيث يحول بين الصنفين ويمنع الاختلاط بينهما فى الظاهر وان لم ينزع الميل اليه من النفوس . فيكون مايسمونه عفة على حد ما قيل « ان من العصمة ان لا تجد » فالاجساد فى صيانة وأغلب القلوب فى خيانة واما الحرية فمزاياها هى ازالة جميع المضار التى تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها وضررها الوحيد انها فى مبدأها تؤدى الى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة الى ان تعرف مسؤليتها و تتحمل تبعة اعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التى هى ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح لا خوفا من عقاب ولا طمعا فى مكافأة ولا لوجود

حائل ليس فى الامكان ازالته بل لانه قبيح فى نفسه

وليس من الممكن أن تصل المرأة الى هذه المنزلة الادبية مادامت في الحجاب ولكن من السهل جداً أن تصل اليها بالحرية

تصل اليها كما وصلت اليها غيرها من النساء الغربيات فانا نرى انه كلما زيد فى حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها

قال العلامة مانتجازا : «أعظم شئ يؤثر فى اخلاق البنات الحرية التى تعطى اليهن من عهد طفوليتهن »

وقال « ان الفضائل الجليلة التى تشاهد عند النساء اللاتى يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تنسب الى الاقليم. لانى وجدت هذه الفضائل فى بيونس - آيرس التى تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها اديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية . ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الأثر فى الاخلاق لفسدت أخلاق النساء فى تلك البلاد . كانت البنات عندنا فى القرن الماضى وفى مبدأ هذا القرن

لاتخرج من الاديرة الا عند الزواج وكن جاهلات بكل مايتعلق بالحب فكن يتلقين دروس الحب من غير الزواج فى أغلب الاحيان . ذلك لان من القواعد العامة ان البنت التى لاتختار زوجها بل تكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التى توصلها الى الخطيئة فلا شئ يقي البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال . »

وقال فى وصف نساء وطنه : «ان المرأة الطليانية اقل من غيرها عفة لانها تتزوج غالبا من غير أن تحب زوجها وكذلك الحال تقريبا فى نساء فرانسا »

أما النساء الانكليزيات والاميريكانيات والالمانيات فاثنى على كمال عفتهن ونسبها الى طرق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال فى أعمال الحياة . فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة ولكن ما أعظم الفرق بينهما فى النتائج التى تترتب عليهما ، حيث ان الوسيلة الاولى تضع المرأة فى صف الادوات والامتعة وتجنى على الانسانية .

والثانية تخدم الانسانية وتسوق المرأة فى طريق التقدم العقلى والكمال الادبى

فقد رأيت مما ذكرناه انما اخترناه فى تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنياً على امر نظرى لا يستند الى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة

وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة الى حد ان الاب يحجر على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته وكذلك الزوج رأى الاجدر به ان لا يفتح الخطاب الذي يرد الى امرأته . وهذه المسئلة الاخيرة كانت موضوع بحث مهم بين اعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريباً وتقرر فيها ان سلطة الزوج لا تبيح له ان يطلع على اسرار زوجته لان هذا العمل يعد تجسساً مهيناً لحرية المرأة وشرفها

نعم ان اغلب الزوجات يطلعن ازواجهن على ما يرد اليهن من الخطابات كما ان اغلب الازواج يعرضوا المراسلات التى ترد اليهم الى زوجاتهم . ولكن يوجد

فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجباً بمقتضى حق يدعى

بلغ من امر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة ان بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من اميريكا الى ابعد مكان فى الارض وحدهن أو مع خادمة ويقضين الشهور والاعوام متغيبات فى السياحة متنقلات من بلد الى أخرى ولم يخطر على بال أحد من اقاربهن ان وحدتهن تعرضهن الى خطر ما

كان من حرية المرأة الغربية ان يكون لها اصحاب غير اصحاب الزوج ورأى غير رأى الزوج وان تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى اليه الزوج . والرجل فى كل ذلك يرى ان زوجته لها الحق فى ان تميل الى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها . وان تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الامم فى نمو مستمر !

ولم يحل بهم شيء من المصائب التي يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين اطالوا الكلام في شرح المضارّ التي تنتج عن اطلاق الحرية للنساء، فكثيراً ما سمعنا منهم ان اختلاط الرجال بالنساء يؤدي الى اختلاط الانساب وانه متى اختلط الانساب وقعت الامة في الهلاك

فهذه ممالك اوربا جميعها نساءها ورجالها مختلطون في كل أطوار الحياة وفي كل آن . وهاهم اخواننا وأبناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههنّ ومعاملة الرجال . فاين هم من الاختلال والهلاك ؟

لنترك هذه النظريات الخيالية التي لا قيمة لها امام الوقائع

دلت التجربة على ان الحرية هي منبع الخير للانسان واصل ترقيه وأساس كماله الادبي وان استقلال ارادة الانسان كانت اهم عامل ادبي في نهوض الرجال فلا يمكن

ان يكون لها الأ مثل ذلك الاثر فى نفوس النساء

غاية الامر ان كل تغيير يعرض على الانظار فى صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو فى الحقيقة فكر سبق اوانه وقت عرضه. ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره الا العدد القليل ممن يمتد نظرهم الى ما يكنه المستقبل من الحوادث

انظر الى حالة مصر : عاشت الامة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى فكانت النتيجة انحطاط عام في جميع مظاهر حياتها . انحطاط في العقول وانحطاط فى الاخلاق وانحطاط في الاعمال . وما زالت تهبط من درجة الى اسفل منها حتى انتهى بها الحال الى أن تكون جسما ضعيفاً عليلا ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الامر في حيرة لا تدرى معها ما تصنع بحريتها الجديدة

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ولا يقدر

الماقيمة وكان الناس يستخفون ويهزؤن بالحرية بل ويتألمون منها وينسبون اليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم فكم من مرة سمعنا باذننا ان سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن ان يكون ناتجا عنها . بل له أسباب اخرى . وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها ولنا الأمل فى اولادنا الذين يشبون على الحرية التامة يجنون جميع ثمراتها النفيسة التى من أهمها تهيأة نفوسهم للعمل . عند ذلك يعرفون جيداً ان الحرية هى اساس كل عمران

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء .

اول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ويظن الناس ان بلاء عظيما قد حلّ بهم لان المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا

فشيئاً وترتقي ملكاتها العقلية والادبية . وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية حتى تصير انساناً شاعراً بنفسه ذلك لان النمو الادبى لا يختلف فى سيره عن النمو المادى . فكما ان الطفل يحبو قبل ان يمشى ويتعلم المشى بالتدريج فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته ثم متى تعلم المشى وحده لا يحسنه الا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع فى خلالها مرات كثيرة كذلك الانسانية فى سيرها الأدبى لا تنتقل من حال الى حال أحسن منها الا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم فى سيرها تلك سنة الفطرة . فلا يجوز لنا ان نتخيل ان فى امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة ان نرجع الى الوراء او نوقف تقدمنا الى الامام

فان أردنا ان نصل الى الغاية التى وجهنا اليها آمالنا فما علينا الا ان نستسلم الى حكم السنة الالهية ونقبل

المتاعب والمشاق التى بدونها لا يمكن الوصول اليها والا كان مثلنا كمثل اب مجنون خاف على ولده اذا مشى ان يسقط على الارض فمنعه المشي حتى كبر فعاش مقعداً مشلول الرجلين ·

الواجب على المرأة لنفسها

أول ما يستوقف نظر الشرقى الذى يحل فى مدينة من مدن أوروبا هو المركز المهم الذى تشغله المرأة فيها ويظهر له من اول وهلة ان التقسيم المصطلح عليه فى بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية هذا التقسيم الذى يحول بين اشتراك الصنفين فى جميع اطوار الحياة ومظاهرها ليس من القواعد المعترف بصحتها فى تلك البلاد

فاذا ترك أوروبا وجال فى ارض اميريكا شخص ببصره مندهشا من المنظر العجيب الذى يراه واستولى الاستغراب على عقله الى درجة الاضطراب . فيجد ان تقسيمه العزيز قد اضمحل حتى كاد يكون معدوما ويرى النساء يشتغلن باشغال الرجال والرجال يعملن اعمال النساء بلا فرق ويسمع أهل اميريكا يتهمون سكان أوربا بانهم ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهم كما يرمى الاوروبيون

رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نساءهم

هذا المنظر يراه الشرقى ويستغربه فى اول الامر ثم ينساه

ولا يفتكر فيه بعد ذلك فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئاً من احوالهم. وان اتى ذكرها عفواً فى بعض الجرائد أو الكتب فلا يحرك ذلك فى نفسه ادنى شوق للوقوف علي معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها

ذلك لانه وقر فى نفسه ان عاداته هى احسن العادات وان كل ماخالفها ليس جديراً بالتفاته واهتمامه

لكن طالب الحقيقـة الذى تعود علي طريقـة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل

فان رأى يوماً في احدى الجرائد ان الست غوردون ترافعت امام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل : ثم رأى يوما آخر فى مجلة ان الست

كارى رينار احدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت في الكنيسة في مدينة لوروا على ملاء عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى ان الست ستون تدرس الاقتصاد السياسى فى كلية شيكاغو لطبة العلم ذكوراً وأناثاً . ثم علم ان لتلك المحامية زميلات يشتغلن امام جميع المحاكم ولتلك القسيسية زميلات فى كثير من الكنائس ولتلك الاستاذة زميلات فى اغلب المدارس . وان تلك النسوة قائمات باعمالهن على طريقة لا تزيد ولا تنقص فى الاتقان عما يقوم به الرجال فى اعمالهم فماذا يعتقد حينئذ ؟ يعتقد ان قول الشاعر .

« كتب الحرب والقتال علينا

وعلى الغانيات جر الذيول »

هو قول لا ينطبق على الحقيقة فى شئ فلا يصح الاستناد عليه فى الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذى لم يفعل سوى حكاية حال النساء التى وجدهن عليها فى عصره . ولكن هل يمكن أن نعذر أنفسنا فى اعتقادنا

ان النساء لا يصلحن الا لجر الذيول مع ان نظرة واحدة فى الاعمال النفسية التى يأتى بها النساء فى الغرب تكفى فى العلم بان حياة المرأة تصلح أن تكون مملوءة بشىء افضل من اللهو واللعب وجر الذيول .

هذه الصورة التى شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لأنها ليست صورة انسان بل ولا حيوان . اذ ليس فى الوجود حى الا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ولا يوجد بين أنواع الحيوانات من أفضلها الى ادناها فرد الا وهو خاضع لقانون التزاحم فى الحياة

ـ اذا أردنا أن نرتب أعمال الانسان بحسب أهميتها نجد انها تنقسم الى ثلاثة أنواع : أولها الاعمال التى يحفظ المرء بها حياته . وثانيها الاعمال التى تفيد عائلته . وثالثها الاعمال التى تفيد الوجود الاجتماعى

ومن البديهى ان كل تربية صحيحة يجب ان تمكن الانسان من القيام بهذه الاعمال وان تراعى هذا

الترتيب الطبيعي . فالمعارف التي تضمن سلامة الحياة والقيام بالضرورات والحاجات اللازمة لها هي أهم من غيرها فيلزم أن تفضل على المعارف التي تختص بالواجبات العائلية لانه لا يمكن القيام باى واجب عائلى الا بعد قضاء الواجبات الاولى . كذلك المعارف التي ترشد الانسان الى معرفة واجباته العائلية هي مقدمة على المعارف التي تختص بالواجبات الاجتماعية لان قوه الهيئة الاجتماعيه متوقفه على حسن نظام البيوت

اذا تقرر ذلك نقول ان التربية التي تشمل هذه الانواع الثلاث على الترتيب الذى وضعناه هي لازمة للرجال والنساء على حد سواء

ولكن دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية فاني ماطلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شيء منها . لا لاني اعتقد ان الحجر على المرأة ان تتناول الاشغال العمومية ـ حجرا عاما مؤبدا ـ هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي . بل لاني ارى اننا لانزال الى

الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالاعمال العمومية وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ويلزمها ان تقضى اعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية

لهذا نترك الكلام على الاعمال والمعارف التى تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر فى الكلام هنا على الاعمال والمعارف التى تختص بالنوعين الاولين

مهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة لا يجوز ان يدعي احد انها يمكنها ان تستغنى عن الاعمال التى تحافظ بها على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الانسانيه

كذلك مهما اختلفنا في تحديد وظيفة المرأة فى العالم لابد ان نعترف انها لا يمكنها ان تتخلى عن الاعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها العائليه . اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الاعمال يكون نافعا . وكل

تربية تأهل المرأة الى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو أيضاً نافع

يظن الكثير منا ان المرأة فى غنى عن ان تتعلم وتعمل ويزعمون ان رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه ان يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل

ولكن هذا الكلام هو فى الحقيقة تدليس على النساء وان كان ظاهره الرأفة عليهن

والناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يحمله على بينة من ذلك . يرى ان الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان الا فى لحيظات قليلة وانهما يتحاربان اناء الليل واطراف النهار . يريد الرجل ان ينتهز ضعف المرأة وجهلها يجردها عن كل ما تمتلكه ويستأثر وحده بالمنافع . وتجتهد المرأة على قدر امكانها فى الدفاع عن نفسها ولا تجد الى ذلك سبيلا

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين فى كتاب

لـكانت احسن مايمكن ان يكتب المدافع عن حقوق المرأة

لا اظن انى مبالغ ان قلت انه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة لاى سبب من الاسباب سواء كان لزواج وقع بينهما او لاشتراك فى ملك آل اليهما أو لتعهد ارتبطا به فاول ما يسبق اليه فكر الرجل هو ان يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها والمسكينة غافلة عن الاخطار التى تحدق بها . وان اكتشفتها فلا يكون فى الغالب الا بعد خرابها وعلى اى حال متى وقعت فى الشرك لم يبق لها من حيلة الا البكاء والعويل لانها ترى نفسها فى حيرة وارتباك لا تدرى معهما ماذا تصنع للخلاص

وكل المصريين يعلمون ان النساء فى الوجه القبلى عامة كن محرومات من حقوقهن في التركات التى يرثن فيها بمقتضى احكام الشريعة وان هـذه الحال بقيت مستمرة الى ان دخل نظام المحاكم الاهلية فى

الصعيد حتى ان بعض المديرين الذين اخذ رأيهم فى تشكيل المحاكم الجديدة فى الوجه القبلى كانوا يعدون من موانع تشكيلها انها لو شكلت يكون من احكامها ان يعطى النساء حقوقهن فى التركات وان في هذا تغييراً كبيراً للعادات المتبعة فى تلك البلاد !

وليس فى هضم حقوق النساء شئ من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لاحد

نحن نفهم أن رجلا يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبته على ورقة ان ليس على النساء الا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال نفهم ذلك لان الورق يتحمل كل شئ

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . اذ يكفى في ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشرعا حكيما ويحكم على القوانين والعادات والاخلاق

وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد على ان يحلل

النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع . فانه اذا أراد مثلا ان يحصل لنفسه رأيا فى ماهى حقوق النساء التى نحن بصددها يجب عليه أولا ان يسوق نظره الى الوقائع التى تمر أمامه . أعنى ان يطبق نظريته علي الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة ومعمولا بها فى قرية ثم في مدينة ثم فى أقليم وتمثل أمامه النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن . فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . ويراهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفي الاماكن الصناعية . ويقف على سلوكهن مع أزواجهن واولادهن وأقاربهن والاجانب ثم يعرف البلاد التى للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا فى بلادنا وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التى ترتبت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة فى الازمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها

ذلك عمل ليس بالسهل . لانه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له ان يحكم فى المسئلة حكما قاطعاً . لانه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها الا تقريبية . لذلك تراه دائماً على طريق البحث . لا يركن الى ماوصل اليه جهده الا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب مايقتضيه الحال ويظهره العمل

والامر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية . فهو يعتقد ان قضيته تشبه قضية حسابية فهى لا تخطأ أبداً . مع انها مؤلفة من معان عامه مبهمة لا يستقر الذهن فيها على شيء محدود — مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة الى داخلية وخارجية وهكذا — هذه المعانى تملأ عقله . ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهى فى الحقيقة الفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان

فهو لاينظر الى الاشخاص الحقيقيين . ولا يرى نفسه محتاجاً الى ان ينظر اليهم ولا ان يبحث في احوالهم

ولا يخطر بباله ان للمادة الانسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله . لذلك لا يهتم بان يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا ان يبحث ان كانت غنية أو فقيرة . عائشة وحدها أو فى عائلة . ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية

هذه الصور العديدة المختلفة لا تنفذ الى مداركه ولا تقر فيها لان جميع نوافذها قد سدت بجسم النظرية التى احتلت عقله من أوله الى آخره حتى لم يبق فيه مكان لشئ آخر

فهو ان كتب أو تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان . وانما يكتب ويتكلم عن المرأة التى فى ذهنه

وهى امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين . جميلة المنظر رقيقة الطبع . شهوية المزاج . تكفى اشارة منها لكى تنال ما تشتهيه نفسها لانها ذات ثروة عظيمة او لان لها بعل وافر الثروة ولا يبخل عليها بشئ . اما

اخلاقها فانحطاط النفس والميل الى الكذب والاحتيال والتطلع الى اعمال السوء . لا يحول بينها وبين ذلك الا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال

ولا نرى فى تمثيل المرأة فى اذهاننا بهذا المثال الا توارثنا آراء العرب فيها .

ذلك ان حياة العرب كانت حياة حرب وقتال وارزاقهم كانت من الغنائم . وغنى عن البيان ان امة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير . اذ المرأة فى هذه المعيشة لا تستطيع ان تجارى الرجل . ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم حتى حسبت من المتاع وادوات الزينة وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الاموال

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الامة العربية لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل كذلك

لم يكن لها عمل فى العائلة لان التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والا كل حتى ينشأ رجلا مقاتلا لا عالما فاضلا

فلا عجب اذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم بل وفى مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم مايدل على احتقارهم للمرأة

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة فى عقول المسلمين وهى صورة حقيقية اذا نظر الى الماضى ولكنها مزورة اذا نظر الى الحال والمستقبل ذلك لان المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف سنين لا فى الظاهر ولا فى الباطن. وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والاخلاق والحاجات والضرورات. لان الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغييراً كلياً عما كانت عليه فى الماضى. وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب

فالمرأة العربية كانت تكتفي من طعامها بخبز من شعير . ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها بيت من شعر . وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج الى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشؤون المعاشية لان عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين اليها في قوام حياتهم العائلية والاجتماعية . والمرأة العربية كانت مستعبدة لانها كانت في الحقيقة متاعاً يدخل في حوزة الرجل بالسلب اوبعقد هو اقرب للبيع منه الى الزواج

اما الآن فنحن في عصر امن الناس فيه بعضهم بعضاً واستقر النظام فيهم فلم تبق الحرب شغلاً شاغلاً لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض . واصبح الناس غير محتاجين الى الغزو في كسب ارزاقهم . فبعد ان كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائهم في القتال وحسن بلائهم فيه وبعد ان كان الفائق في الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الاعلى والضعفاء

كلهم تحت كنفه انقلب الحال . ولم يبق للقتال حاجة الا فى أحوال مخصوصة يتولاه فيها أناس معروفون . واقبل افراد الامة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون فى أمور اخرى . فمنهم المتنافسون فى المجد بالعلم ومنهم المتسابقون اليه بالثروة وفيهم المجدون فى طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة . واتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة انسان مثل الرجل . زينتها الفطرة ، وهبة العقل فحق لها ان تسمو اليوم الى مايقرب من درجته ان لم تستطع أن تساويه فيها . ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات واصبح المقصر فى سعيه الساقط فى عزمه القاعد في كسله وجهله مهدداً بالموت محفوفا بخطر العدم . وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد . فاهل البلد الواحد يتزاحمون فى طرق الكسب ويتدافعون في سبله بوسائل العمل وحيل العقل . وجميعهم يزاحم الاجنبي الذى سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوفر اسباب الامن . وما هذا الجهاد بالهين السهل بل هو مما يحتاج الى أعمال

القوى العقلية والبدنية أكثر مما يحتاج اليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها الى قانون الفطرة . فعرض لها من الحاجات ما لا يمكن معه ان تعيش مقصورة فى بيتها فهى مضطرة رغما عنها ان تدخل فى مادخل الرجال فيه وان تعمل لتكسب وتعيش وتعلو وتعلو فهى بحكم هذه الضرورة فى اشد الحاجات الى تعلم مايمكنها من بعض الغلبة فى هذه المزاحمة العظيمة

وما تسمعه الان من صياح النساء وعويلهن وشكواهن من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهن أو اغتيال حقوقهن ومن أحاديث تطوح الكثير منهن فى مهاوى الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ماقلنا ويظهر لكل نظر صواب مابيننا

وانا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده هل يمكنهم ان يقولوا أن لاحاجة للمرأة تدعوها الى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة أو يقولوا انها فى حاجة الى ذلك

ولكن وا أسفاه ليس فى فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لاخذ أهبتها فى هذا الجهاد

هذه المسئلة لا تحل ببعض كلمات مثل كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل لان الضعيف والقوى وصاحب العقل الكبير وذو العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون أمام ضرورات الحياة. وانما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسئلة وحلها هو أن يعرف أولا هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لا يكفى لقضاء ما يحتجن اليه . ثم اذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهن وهل هو كثير أو قليل . ؟

والذى يمكننا الرجوع اليه فى ذلك هو تعداد أهالى القطر المصرى الذى حصل في سنة ١٨٩٧ وهو آخر احصاء جرى . جاء فى هذا الاحصاء ان جملة النساء المصريات اللاتى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٦٣٧٣١ أى انه يوجد الآن في مجموع المصريات اثنتان فى كل

مائة امرأة يشتغلن بصنعة ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الارياف اللاتى يشتغلن بالزراعة ولا النساء الاجانب اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة .

وغنى عن البيان ان هاته المحترفات هن نساء لاعائل لهن لما نعهده من أن الرجال لايسمحون لازوجاتهم ولا لبناتهم ان يحترفن بصناعة مالم يكونوا أنفسهم عاجزين عن كل كسب

واذا رجعنا الى مشاهداتنا نجد أن النساء اللاتى لاعائل لهن يزدن عن هذا المقدار اضعافه لان الاغلب منهن يعيش عالة على أقاربهن ومنهن من يستعمل لكسب العيش وسائل لايعترف بها . وأضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتى لايكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن . فهن مع أزواجهن دائماً فى نزاع وشقاق ثم تزدحم أقدامهن فى ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدر القاضى للزوجة قرشين فى اليوم صاح الزوج هذا كثير. وعدد

هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع ما سبقهن

اذا سلمنا ان عدد النساء المصريات اللاتى ليس لهن عائل لا يزيد عن اثنين فى المائة من مجموع النساء المصريات أفلا ينبغى لهؤلاء النسوة اللاتى قضت عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الاقوياء لكسب عيشهن ان يتهيأن الى النجاح قبل الدخول فى معترك الحياة بالوسائل التى يستعد بها الرجال انفسهم ؟ وهل يكون من الحق والعدل ان يحرمن من التربية التى تأهلهن للدفاع عن انفسهن ؟ وهل من مصلحة للرجال اولعموم الهيئة الاجتماعية من ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟

نحن لا نجادل فى ان الفطرة اعدت المرأة الى الاشتغال بالاعمال المنزلية وتربية الاولاد وانها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الاعمال التى تقوى عليها الرجال . بل نصرح هنا ان أحسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هى

ان تتزوج وتلد وتربى اولادهـا . هذه قضية بديهية لا تحتاج فى تقريرها الى بحث طويل وانما الخطأ فى ان نبنى على ذلك ان المرأة لا يلزمها ان تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها ان كان لها اولاد صغار عند الحاجة

ذلك لانه يوجد فى كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره او عجزه او كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن اولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الاشغال الخارجة عن المنزل بحجة ان لهن رجال قائمين بمعاشهن اولان عليهن واجبات عائلية او لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل

نحن لا نقول للمرأة اهجرى الزواج ولا تبغى النسل او اتركى زوجك واولادك فى البيت وقضى اوقاتك فى

الطرق وعيشى كما يعيش الرجال فانا نكرر القول باننا نود ان كل امرأة تكون زوجة وان كل زوجة تكون اما. ولكن هذا لا ينسينا ان الواقع هو غير ما نتمنى اذ الواقع ان عدداً عظيما من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائليـة

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية فاننا لو اخذنا اخر احصائية فى فرانسا وجدنا أنه يوجد ١٧٠ و٦٢٢ و٣ من النساء غير متزوجات و٧٧٨ و٠٦٠ و٢ ارامل و٩٢٤٢٨٦ متزوجات وليس لهن اولاد أى يوجد فى فرانسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات اليه بدون ان يكون فى اعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنية فى بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل ان يوجد اليوم اثنان فى المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة او حرفة سيوجد عن قريب اضعاف هذا العدد. ذلك

لان الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل

لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لا بد أن يزداد فى كل سنة عن الاخرى لاننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه اوروبا قبلنا

ولا خلاف فى أن عدد الزواج فى اوروبا هو اقل منه في الشرق . وسبب ذلك أن الواحد منهم لا يتزوج بالسهولة التى لا يتزوج بها الواحد منا فان الاوروبى يطلب من الزوجة قرينا يرافقه طول حياته وصاحبا يشاركه في جميع اعماله وافكاره وعواطفه فهو يطلب لها جميع الصفات التى يبحث عنها الواحد منا اذا أراد أن يتخذ له صديقاً فالعثور عليه يكون صعبا

وأضيف على ذلك سبب آخر . وهو ان الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدنة لا تسمح للفرد أن يكون قادراً على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين الا فى النادر لانه يصادف فى طريقه مزاحمات عظيمة وعليه

ان يخرق الصفوف التى امامه . هذا ان ساعده الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز فى التجارة او الصناعة او الحرف الادبية . والكثير منهم يقضى حياته فى البحث ولا يجد شيئاً

ومن الاحتياط عندهم ان لا يتزوج الشخص قبل ان يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفى لمعاشه ومعاش أولاده . لانهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلاتهم ولا يرضون ان يكونوا سبباً في شقاء ازواجهم واولادهم . فانما الجاهل هو الذى يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الجامعة . ولا يعرف لاهله حقاً عليه

فنحن مسائرون فى هذا الطريق بقوة لا يستطيع أحد مقاومتها . ويظهر لى ان الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص فانى اعرف كثيراً من الذكور والاناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة ولزمتهم العزوبة مختارين او مضطرين . ولكنى لا ادرى هل ذلك عام

او خاص ببعض المواضع . وانما يمكنني أحقق ان متوسط السن الذي يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه في الماضي . فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين في الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ . وكثيراً ما كان يحصل الزواج قبله

وليس يفيد شيئاً ان يصبح ارباب الاقلام عندنا ناقمين على ماوصلت اليه حالنا اليوم وما ستصل اليه على ممر الايام وان يستشهدوا بما وقعت فيه اوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء باشغال الرجال . ذلك لا يفيد لانه لا يمكن ان يترتب على هذه الشكوى اثر ما في مجرى الحوادث في العالم . ولو كانت الشكوى تكفي لتغيير الحال لكان الامر سهلا

والحقيقة ان أهم عامل له أثر في حال الامة هي حالتها الاقتصادية . ومن الاسف هذه الحال الاقتصادية ليس في امكان احد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء

نعم يوجد فى كل أمة متمدنة عـدد من النساء الجأتهن الضرورة الى السعى والكد والاشتغال باعمال الرجال ـ أى مسترجلات ـ اذا شئت . وهن النساء اللاتى زهد فيهن الرجال فلم يرغب احد فى زواجهن والارامل اللاتى توفى زوجهن والمطلقات اللاتى تركهن أزواجهن . هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنباً على الهيئة الاجتماعية فما من واحدة منهن الا وكانت تتمنى أن تجد رفيقاً صالحا يحبها وتحبه ويساعدها وتساعده مامن واحدة منهن الا وفى قلبها أثر الحزن لانها لم تلد ولداً تشتغل بتربيته . مامن واحـدة منهن الا وتبكى فى وحدتها سوء حظها وتأسف على ضياع الامانى التى قضت حياتها فى انتظارها

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضى بان كثيرا من النساء يعشن فى الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قـوتهن وقوت أولادهن وبعض أقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب

يقول المعترضون انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال والاختلاط بهم كما انهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازما لكسب عيشها لان الضرورات تبيح المحظورات . وقد اتفق جميعهم على هذا الرأى حتى حضرة العالم العلامة (هكذا هو لقب نفسه على ظهر كتابه) الذى انتدب عن فقهاء الازهر للرد على تحرير المرأة . فكلهم يرون ان منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة أعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذى يؤهلها الى هذه الاعمال هو خاص بغير الفقيرات من النساء اللاتى تلجأهن الضرورة الى السعى لتحصيل أرزاقهن

ويتبين من هذا انهم متفقون معنا فى حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا فى غيرها . فهم يرون ان الاباحة يلزم ان تكون خاصة لهذه الحالة فقط وبهؤلاء النسوة ونحن نرى انها يلزم ان تكون عامة شاملة لجميع النساء والاحوال ولو شاؤا ان يفهموا مايقولون وان يقفوا على ما

يفضى اليه رأيهم هذا لو وافقونا فى رأينا وحكموا حكمنا لانهم يقولون ان المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الاعمال ما يتناوله الرجال اذا مست الحاجة الى ذلك . ولا يخفى ان كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات . والعمل الذى تدفع اليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفى فى القيام به على الوجه اللازم ان تتوجه المرأة اليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه ان تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل الى المرغوب وهذا الاستعداد لا يكون الا بالتربية والعلم والتمرن والممارسة واختيار الناس فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقات الضرورات حتى وقعت فيها لم تستطع للخلاص منها سبيلا وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك

وياعجباً كيف نتوقع الخيبة للرجل منا اذا كان ناقص التربية قليل المعرفة عديم الاختبار ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه فى هذه النقائص؟

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية وتقع فى كل آن . ولما كان الاطلاع على الغيب امراً غير ميسور للانسان وجب ان تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل ان تقع فيها

لهذا نرى ان من اهم مايجب على الاباء ان يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقى من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول الى حظ من السعادة فى هذه الحياة

نعم نرى انه يجب على كل اب ان يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية مايمكن وان يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية اولاده الذكور . فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيرا وتفيد عائلتها وان لم تتزوج او تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الاسباب الكثيرة الوقوع امكنها ان تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها

وسواء نظرنا الى الفوائد المادية التى ينالها صاحب

العلم من علمه او نظرنا الى اللذة المعنوية التي يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب

بين يدى الآن كتاب ألفه احد الكتاب الفرنساويين وهو بول دروزيه وسماه الحياة الاميريكية قال فيه عند الكلام على تربية البنات ما يأتى :

« رأيت فى اميريكا الصبيان والبنات يذهبون الى »
« مدرسة واحدة ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم »
« بجانب بعض ويسمعون دروساً واحدة ويرتاضون »
« معاً. فاذا اتموا دروسهم استمر هذا الاختلاط حيث »
« ترى البنات في المعامل والمصانع يشتغلن ويستخدمن »
« فى اللوكندات الكبيرة لمسك الدفاتر ويربين الاطفال »
« فى المدارس الابتدائية ويطلبن العلم فى مدارس الطب »
« وترى منهن قسيسات يخطبن فى الطرق واعضاء فى »
« الجمعيات الخيريه ورئيسات فى المجالس البلدية وما »
« اشبه ذلك. اذا أردت ان تعرف ماهو سبب هذه »
« العادات الغريبة وما هو المقصود من تربية النساء »

« على هذه الطريقة وما هي الواجبات التي يتأهبن الى »
« اداءها بهذه التربية فعليك ان تتأمل في هذه المسئلة »
« لكي تقف على سرها. اذا فكرت فيها تعلم انه يوجد »
« تياران متعاكسان يقابلهما حالتان للمرأة مختلفتان »
« وبيان ذلك ان البنت ان بقيت عزبة تضطر »
« الى ان تجاهد فى سبيل الحياة كالرجل الذى يناضلها »
« فاحسن تربية توافقها حينئذ هى تربية كتربية الرجال »
« اما اذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهى »
« تشتغل بادارة منزلها وتربية اولادها. ولكن من ذا »
« الذى يعلم مستقبل البنت وهى فى السنة العاشرة من »
« عمرها ؟ وما الذى يعمله الآباء امام هذا المستقبل »
« المجهول ؟ رأى الاميريكانيون ان من الفطنة ان »
« يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن وان يربوهن كالذكور »
« من جهة التعليم والاستقلال فى السير. فالاب الاميريكى »
« يربى بنته على ان تعتمد على نفسها لانه يجهل مستقبلها »
« فان صادفت زوجاً يريد اذ يضع يده فى يدها ويقطع »

« معها طريق الحياة كانت هذه التربية أحسن ما يأهلها »
« للقيام بواجباتها العائلية . وان لم يوجد احد يرغب »
« الاقتران بها فقد خلص الاب من اللائمة حيث انه »
« تبصر فى المستقبل وعمل كل ما يمكن أن يعمل ليعدها »
« للغلبة على ما تلاقيه امامها من الصعاب ومرارة الحياة »

ويوجد حرفتان اود ان تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا : الاولى صناعة تربية الاطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هى احسن ما يمكن ان تتخذها امرأة تريد ان تكسب عيشها لانها صنعة محترمة شريفة والمرأة اشد استعداداً لها من الرجل وادرى منه بطرق استمالتهم واكتساب محبتهم . وبلادنا اشد البلاد حاجة الى نساء يعرفن هذه الصناعة فانه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها فى تربية الاولاد . والعائلات المصرية فى احتياج الى عدد وافر من مربيات الاطفال حتى تستغنى بهن عن المربيات الاجانب . كذلك لا يوجد فى مصر مدارس للبنات يتولى ادارتها والتعليم فيها مصريات . وهذا نقص

كبير فى بلادنا حيث اننا جميعاً مضطرون الآن الى تربية بناتنا فى المدارس الاجنبية

والحرفة الثانية هى صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التى يكابدها عندما تكون احدى النساء من اقاربه مريضة ويلح عليها ان تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصاً اذا كان المرض من الامراض الخاصة بالنساء . فاذا وجد عدد من النساء يعرفن صناعة الطب فلا شك ان صناعتهم تروج رواجاً عظيما بما يجدنه من الحاجة اليهن فى البيوت المصرية . وهنا نقول ايضاً ان فن الطب هو من الفنون التى تلائم استعداد النساء الطبيعى . ومانشاهده الآن فى المستشفيات العمومية وفى العائلات من الخدمات الجليلة التى تقوم بها النساء هى اعظم برهان على ان المرأة بما جبلت عليه من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل مايصلح له الرجال من معالجة الامراض ان لم تكن اشد صلاحية لذلك منه

كذلك يمكن للمرأة ان تشتغل بجميع الاعمال

التى قوامها الترتيب والتنظيم ولاتحتاج الى قوة العضلات والاعصاب كالتجارة . فكم من بيوت تجارية ارتفعت بايدى النساء بعد ان كانت سقطت من ايدى الرجال.

وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الادبية

ان المرأة المصرية اذا احتاجت اليوم الى كسب معاشها بنفسها لا تجد عملا تتناول منه ما تقتات به الا بعض الاعمال الشاقة السافلة كالخدمة فى بعض البيوت او الجولان فى الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة. فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كانه فى الحقيقة تخصيص لهن بمثل هذه الاعمال الدنيئة التى لا ينال بها الا القليل التافه وحرمان لهن من الاعمال الشريفة التى تعود على اربابها بالمكاسب الوافرة

فهذه المنزلة المنحطة هى التى نريد استبدالها بارفع منها يجب ان تربى المرأة على ان تكون لنفسها اولا — لا لان تكون متاعا لرجل ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها

يجب أن تربى المرأة على ان تدخل فى المجتمع الانسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ما شاء

يجب ان تربى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقاءها فى نفسها لا فى غيرها .

بماذا نقابل رجلا ينصحنا بقوله ربوا ابناءكم ليكونوا ازواجاً فقط ولا تعدوهم الا للزواج ؟ لا ريب انا نقابله بالسخرية والاحتقار . لاننا نعلم ان الرجل لابد له اولا ان يكون انساناً مستعداً لان يلاقى من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الانسان وان ينال من السعادة ما يليق بالانسان ان يناله فمتى تعلم وصار قادراً على كسب عيشه وكان متجملا بحسن الاخلاق كان بالطبع زوجاً صالحاً . فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا اعدوا بناتكم لان يكونوا فراشاً فقط ولا تعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟

نتج من كل ما تقدم ان للمرأة حقاً فى ان تشتغل

بالاعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها وان هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بحق آخر وهو ان توجه تربيتها الى الطرق التى تؤهلها الى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها وليس معنى ذلك الزام كل امرأة بالاشتغال باعمال الرجال وانما معناه انه يجب ان تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه



الواجب على المرأة لعائلتها

الى هنا كان كلامنا فى التربيـة والاعمال التى لا بد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها ونريد الآن ان نتكلم على الاعمال والتربية التى تلزم للمرأة لتكون نافعة فى عائلتها

جميع الناس متفقون على ان قوام العائلة ونظامها في يد المرأة ولكن ليس كل الناس سواء فى فهم هذه القضية . فالجمهور الاعظم من الناس يفهمون ان معنى ذلك هو ان تقوم المرأة بخدمة زوجها واولادها ان كانت العائلة فقيرة او تدير اعمال الخدمة الذين يؤدون هذه الاعمال باوامر تصدرها اليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية

الى هذا الحد يقف فكرهم

هكذا بخسنا المرأة حقها فى جميع الاحوال فبعد ان

حرمناها حريتها وافقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال الى أن ضيقنا دائرة اعمالها حتى فى العائلة . وهذا اقوى دليل على ان كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض فالمرأة المهذبة الحرة هى التى يمكن ان يكون لها نفوذاً عظيماً فى عائلتها والمرأة الجاهلة المستعبدة لا يمكن ان يكون لها من النفوذ فى عائلتها اكثر مما يكون لرئيسة الخدم فى البيت

ظن المسلمون ان تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يفضى الى اهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشؤون العائلية فوضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجاباً تاماً حتى لا يشغلها شئ عن معاشرة زوجها وادارة منزلها وتربية اولادها ولكن انظر الى النتيجة تجد انها خلاف ما قصدوه حيث ان المرأة المصرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها ولا يمكنها ان تشتغل بادارة بيتها ولا تصلح لان تربى اولادها

ذلك لان جميع اعمال الانسان مهما اختلفت

وتنوعت هى صادرة عن اصل واحد وهو علمه واحساسه فان كان هـذا الاصل راقياً كان أثره في كل شئ كبيراً نافعاً حميداً وان كان منحطا كان اثره فى كل شئ حقيراً ضاراً غير محمود

فالوظيفة الحقيرة التى تأديها المرأة المصرية عنـدنا اليوم فى العائلة هى مطابقة لمنزلتها من ذلك الاصل المتقدم ذكره . ولكن عجز نساؤنا الان عن القيام بالاعمال التى ينبغى ان تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن الى الحد الذى يرجى لهن

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهور عندنا واهم هذه الواجبات هى تربية الاولاد

اذا اردت ان تعرف مقدار جهل الامهات عندنا بابسط مبـادئ التربية انظر الى احصائيات وفيات الاطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات فى مدينة مثل لوندره تجد ان عدد الموتى من اطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من اطفال مدينة لوندره . وقد اطلعت على

احصائية مصلحة عموم الصحة التى نشرت فى هذا العام فوجدت ان عدد المتوفين بين الاطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو فى مدينة القاهرة ١٤٥ فى الالف ويقابل ذلك فى مدينة لوندرة ٦٨ فى الالف

فاذا كانت صحة اولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلق بالطريقة التى يتبعها النساء فى تربيتهم افلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأى ان نكل اولئك الاولاد الى ما يقترحه الجهال ونتركهم الى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء

ان الامهات الجاهلات يقتلن فى كل سنة من الاطفال ما يربو على عدد القتلى فى أعظم الحروب وكثير منهن يجلبن على اولادهن امراضاً وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم . وليس لهذا البلاء سبب فى الاغلب سوى جهل الامهات بقوانين الصحة .
لو كانت ام الطفل تعرف ان كل ما يتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له اثر على جسمه لامكنها

ان تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية ولو علمت كل ام ان اغلب الامراض التي تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سبب وانها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت في وقايته من كل ما من شأنه ان يضر ببدنه ولكن كيف تصل الى معرفة ذلك مع جهلها الذي يخيل لها ان المسببات تقع بلا اسباب او تحصل باسباب خارقة للعادة؟

لا ينبغي هنا ان اشرح بالتفصيل كل ما يليق ان يعرفه القراء في هذا الموضوع وانما نقول بالاجمال ان التربية الجسمية للولد وحدها تستدعي معارف كثيرة اغلبها يتعلق بقوانين الصحة وان معرفة هذه القوانين تحتاج الى مقدار عظيم من معارف اخرى لا بد منه ليتيسر فهمها

فعلى الام ان تعرف افضل الطرق لتغذية الاطفال لان الانتظام في نمو الجسم يرتبط دائماً بانتظام التغذية. وجودة الانسجة وخصوصاً النسيج المخي تتعلق بجودة

التغذية. حتى قال بعض علماء الطب ان الامم التى تفضل غيرها فى التغذية تفوق سواها في القوة وتتغلب على غيرها من الامم

وعلى الام ان تعرف كيف تقي جسم ولدها من اعراض الحر والبرد وما هو الماء الذى ينبغي استعماله فى نظافة جسمه من حار او فاتر او بارد . وعليها ان تعرف ان للهواء والشمس اثراً حميداً فى الصحة فلا تحرمه من التمتع بهما. وهكذا يقال فى الاشياء الاخرى كالنوم واللعب وما أشبه ذلك

ثم يجب عليها من جهة اخرى ان تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والادبية والا كانت اول عامل فى فساد اخلاق ولدها

انظر الى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن انسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك انها تمنعه من اللعب كى لا يشوش عليها وهى لا تدرى انها بمنعها له عن اللعب تقف في سبيل نموه . واذا

ارادت ان تأدبه هددته بما لا تستطيع او بما لا تريد ان تنفذه او خوفته بموهومات تثير فى ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته . واذا ارادت ان تكافأه وعدته بوعود لا تفى بها . فتكون له بذلك قدوة فى الكذب وتحدث فى نفسه ضعف الثقة بالقول . وهى فى اغلب حالاتهـا تظهر الغضب عليـه وتنهره بالصوت الشـديد وتزعجه بحركات التهديد . كانها تريد ان تثبت له باقوى الدلائل انها عاجزة عن ضبط نفسها وسيـاسة قواها . وربما كان السبب الذى اثار غضبها لا يستحق من ذلك كله شيئا . فاذا رأت منه انفعالا مما صدر منها لم تلبث ان تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ما صدر منها . والولد المسكين لا يدرى كيف استحق غضبها اولا ثم رضاها ثانياً

هذه العيوب ليس خاصة فقط بالامهات بل نجد كثيراً من الاباء عندنا لجهلهم بطبيعة النفس الانسانية يستعملون فى تربية اولادهم طرقا لا تقل فى الشناعة

والسخافة عما يستعمله النساء . ومن اقبح مايصنعه كثير من الآباء مع ابنائهم ان يشتم ويسب الوالد ولده بالفاظ لا يدرى الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها فاذا احسن الاجابة ضحك ابوه سروراً واستبشر بنجابة ولده . وكذلك ترى الواحد منهم يأمر ولده امراً لا داعى له فيخالفه الطفل فينقض عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه فى اى مكان يصادفه من جسمه . ولم يكن ذلك منه الا لانه يرى فى عدم طاعة ولده اخلالا بسلطته وامتهاناً لعظمته

ولو كان هذا الاب يعقل مايفعل وعلم ان كل ما يعود عليه الطفل فى نشأته يحدث فى نفسه أثراً يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على مالا يحسن ان يراه منه فى كبره . ولو علم ان المقصود من التربية ليس ان يتعود الطفل على ان يطيع كل امر يصدر اليه وانما الغرض منها ان يتعود على ان يحكم نفسه لا جتنب الامر والتهديد والضرب . فان هذه الوسائل لا تهيأ الطفل الى ان يحكم

نفسه وانما يتمرن الطفل على ان يحكم نفسه اذا اجتهد ابواه في اقناعه وتنبيه عقله الى عواقب افعاله حتى يتولد في نفسه اعتقاد ثابت بان ما يصيبه من خير اوشر فهو من كسبه

افضل طريق للتربية يؤدي الى هذه الغاية (ان يحكم الشخص نفسه) هي ان يترك الطفل وميله يعمل العمل حسب ما يسوقه اليه خاطره ولا يتداخل المربي الا ببيان ما ينتج عن هذه الاعمال بصورة نصيحة وارشاد . فاذا لج الصبي في مخالفة النصيحة تركه حتى يقع في عاقبة عمله لكن مع المراقبة الدقيقة كي لايكون ضرر العمل شديداً وانما يسوغ الردع والمنع في الاحوال النادرة التي يعرض الصبي نفسه فيها للخطر

بهذه الطريقة يستعد الطفل الى ان يكون رجلا يعتمد على نفسه في الوقت الذي لا يجد بجانبه احداً يدافع عنه ويحافظ عليه

يمكني ان اقرر بوجه الاجمال حقيقة اود ان يطلع

عليها كل أب وأم وهي ان جميع العيوب التي تشاهد عند الاطفال مثل الكذب والخوف والكسل والحمق هي ناشئة من جهل ابويه بقواعد التربية . وان من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الادبية . وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية

اذا كانت وقاية الطفل من الامراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج الى معلومات كثيرة كما ذكرنا فالوقوف على غرائز الطفل الطبيعية وغرس الصفات الحميدة في نفسه يحتاج الى معارف ادق ومعلومات اوفر

يظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم ان لا شيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى علم اوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلانها تحتاج الى جميع العلوم التي توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسماني والروحاني . واما من جهة المشقة والعناء فلان تطبيق هذه القوانين على ما

يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة في العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك انى اذهب الى ان كل أم يجب عليها ان تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن اقول ان جميع الامهات يجب عليهن ان يعرفن كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهن باصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية اولادها

يرى القراء انى اهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية . وليس ذلك من باب السهو بل لان مدار التربية كلها على الام . فالولد ذكراً كان او انثى من وقت ولادته الى سن المراهقة لا يعرف قدوة له سوى والدته ولا يعاشر غيرها ولا يرد على حواسه الا الصور التى تعرضه لها . فنفسه صحيفة بيضاء وامه تنقشها كما تشاء . ويتم نقش الصحيفة وتكون كتابا مسطوراً عندما يبلغ الطفل سن الرابع عشرة كما قال الفونس دوريه وليس فى امكان الناشئ بعد ذلك ان يضيف على ما رسم فى نفسه او

ينقص منه الا شيئا قليلا لا يترتب عليه تغيير الكتاب .

هذا هو السر في احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم امهاتهم . فهم يعلمون ان كل ما هم عليه من الصفات الحسنة والاخلاق الطيبة هو من فضل امهاتهم اللاتى اودعن فيهم بضعة من ارواحهن وهى خير بضعة كانت عندهن . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل الى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره . ويرأف بالفقير ويتألم لانين المريض ويرحم الحيوان ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه . ان كان فيهم من يجد فى نفسه احتراما لدينه وتكريما لشأن وطنه وشوقا الى طلب الكمال فى كل شئ فليس ذلك لانه قرأ فى الكتب او تعلم فى المدرسة ان هذه الصفات ممدوحة — ولو كان الادب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من اسهل الامور — وانما كان ذلك لان والدته ارادت ان يكون على هذه الصفات وكابدت مالا يوصف من

المتاعب لطبعها فى نفسه وتثبيتها في طبعه

فهى التى كانت تحرص على ان لا يقع تحت حواسه صورة قبيحة وهى التى كانت تقدم اليه صور الاشياء الجميلة على اشكالها المختلفة . وهى التى كانت تعوده على العادات النافعة شيئاً فشيئاً حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات فى الارض

هذه الوظيفة التى تقوم بها الامهات فى تلك البلاد هى اهم وانفع ما يعمله انسان حى على وجه الارض اذ لا يوجد شئ اهم ولا انفع من تهذيب نفوس الاطفال واعدادهم لان يكونوا رجالا صالحين

من هذا يتبين ان عمل المرأة فى الهيئة الاجتماعية هو تكوين اخلاق الامة . تلك الاخلاق التى اثرها فى الاجتماع من حيث ارتقاء الامم وانحطاطها يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات

لهذا لا يوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة فى الوجود الاجتماعى وشأنها فى العائلة. ولا بأس من ان

نورد هنا شيئا من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء فى رأيهم

قال سيماس « للمرأة فى تهذيب النوع الانسانى اكثر مما لأى استاذ فيه وعندى منزلة الرجل فى النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منه منزلة القلب »

وقال شيلر « كلما وجد رجل وصل بعمله الى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة »

وقال روسو » يكون الرجال كما تريد النساء فاذا أردت ان تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة »

وقال فنلون « ان الواجبات التى تطالب بها النساء هى اساس الحياة الانسانية فالمرأة تدير جميع شؤون العائلة وبهذا العمل يكون لها اعظم نصيب فى اصلاح الاخلاق او افسادها . ليست الامة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل وانما هى مجموع جميع العائلات وما من أحد يمكنه ان يهذب العائلة سوى المرأة »

وقال لامارتين « اذا قرأت المرأة كتابا فكأنما قرأ زوجها واولادها »

وامثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد فى مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الاثر فى اصلاح اخلاق الامم بلغ من الكثرة حداً بحيث لا تمكن الاحاطة به

ومن الغريب ان الكثير من شباننا الذين لهم المام باللغات الاجنبية والذين لابد ان يكونوا قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون انى بالغت فى اعلاء شأن المرأة وتعظيم وظيفتها بل كان من أمر بعضهم ان احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذى لا يليق بان ينظر فيه . وكأن العالم الازهرى الذى رد على كتاب تحرير المرأة قد عبر عن افكارهم عند قوله :

« ما سمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر »
« من الاسفار ولا فى خبر من الاخبار ان أمة من »
« الامم او دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع »

« شأنها بأنائها . وهذه الدول الاوروباوية قد ارتفعت »
« فى هذه الايام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف »
« والصنائع واختراع الامور العظيمة التى عم نفعها فاى »
« شىء من هذه العلوم والمعارف واى امر من مخترعات »
« الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ »

والذى يقرأ هذه السطور يحق له ان يظن ان هذا العالم الازهرى وامثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الاسفار ولا خبر من الاخبار

فالنساء اللاتى خلد التاريخ ذكرهن لشهرتهن بالعلوم والمعارف او بالاعمال العظيمة لسن بذى العدد القليل ويوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهن وليس فى امكاننا ان نأتى هنا على ذكر اعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب نخصصه لذلك وانما يمكننا ان نؤكد هنا انه لا يوجد علم من العلوم ولا فن من الفنون الا وقد برهنت المرأة فيه على انها مستعدة الى ان تصل الى

اعلا مراتب الكمال الانسانى

وانى استلفت العالم الازهرى خصوصاً الى سلف أمته الصالح ليعلم ان تاريخ دينه لم يخلو من ذكر النساء اللاتى كان لهنّ اجمل الأثر فيه

على ان الامر لا يحتاج تحقيقه الى التاريخ فقد وجد فى القرن الذى نحن فيه كثير من النساء اللاتى ارتفع شأنهنّ وذاع ذكرهن فى جميع الممالك المتمدنة

هذه مارية متشل اكتشفت نجماً ذاذنب سمى باسمها وعينت مديرة لرصدخانة فى اميريكا ومعلمة لعلم الفلك ولها مؤلفات كثيرة فى هذا العلم

وكاروláين هرشل اكتشفت سبعة نجوم فمنحها مجمع علمى لوندرا المدالية الذهبية

وتريزدويافير لها مؤلفات عظيمة فى الجغرافيا وفى علم طبقات الارض وكانت عضواً فى المجمع العلمى بمدينة منيخ

وصوفى جرمين لها اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية

وكل اهل العلم يعلمون ان المركيزة دوشاتليه هى التى نشرت مذهب نوتون فى فرانسا وكلمنس رويه هى التى نشرت مذهب داروين وما دام استيل هى أول من عرف المانيا لاوروبا وكذلك ما دام تارنوسكى هى التى نشرت مذهب لمبروزر فى البلاد الروسية

اما عدد الفلاسفة والادباء من النساء اللاتى نشأن فى هذا القرن والقرن الذى سبق لا يمكن حصره فى مثل هذا الكتاب ولكنى لا أرى بدأ من ذكر اثنتين من بينهن لم يسبقهن رجل فى فن الكتابة وهما ما دام لافايت وجورج سند

على ان الارتباط الذى ادعيناه بين تقدم الامم وارتقاء حال النساء لم نقصد به ان المرأة تفيد الامة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية وانما نعنى به خاصة ما لها من العمل فى اصلاح اخلاق العائلة ثم الامة على الوجه الذى بيناه

وبعبارة أخرى نقول ان ظهور رجل عالم او حكيم

فاضل فى امة يعد من الحوادث التى يشترك فى احداثها سببان . الاول استعداده بالوراثة لما ظهر فيـه والثانى تربيته التى ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه. بحيث لو فقد احد هذين السببين امتنع احتمال وجود هـذا الرجل العالم او الفاضل . من هذا يتبين ان شخصيـة الانسان الادبية تتكون من عاملين عامل طبيعى وعامل صناعى . وليس في استطاعتنا ان نأثر فى الاول ولنا على الثانى سلطة واسعة حيث انه يمكننا بالتربية الاولى ان ننمى غريزة الطفل ان كانت غريزته صالحة ونكملها ونزيدها حسناً . ويمكننا ان نضعف من أثرها ان كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حداً تنتهى اليه ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعاً عظيما اذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتـدينا الى طرق التربية الصحيحة

فهذه التربية الاولى — وزمامها فى يد المرأة — هى التى اكسبتها ذلك المقام الرفيع الذى لا يعلوه مقام فى الهيئة الاجتماعية

وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الاطفال. بل المشاهد بالعيان ان المرأة تأثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح فى اعماله وأعدت له اسباب الراحة والاطمأنان ليتفرغ لاشغاله وكم من امرأة شاركت زوجها او اخاها او والدها فى متاعبه . وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته فى حالة اليأس والقنوط وكم رجل طلب المجد ومعالى الامور طمعاً فى ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب

وضع استوارت ميل فى صدر كتابه المسمى الحرية الذى طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية :

« انى اهدى هذا الكتاب الى الروح التى الهمتنى »
« احسن ماوضعته فيه من الافكار الى صديقتى وزوجتى »
« التى كان غرامها بالحق والعدل اعظم ناصر لى والتى »
« كان استحسانها من اكبر المكافئات التى ارجو نيلها »
« على عملى . كان لها فى جميع ما كتبته الى الآن ولها »

« فى هذا الكتاب حصة من العمل لا تنقص عن »
« حصتى فيه. واكبر اسفي ان هذا الكتاب طبع بالحالة »
« التى هو عليها الآن قبل ان تعيد النظر فيه ولو كان »
« فى استطاعة قلمى ان يعبر عن نصف ما دفن معها »
« من الافكار العالية والوجدان السامى لانتفع العالم به »
« اكثر مما ينتفع بجميع ما اكتبه صادراً عن فكرى »
« ووجدانى بدون مشورة عقلها الفريد »

وكانت زوجة باستور الشهير مشاركة له فى جميع مباحثه العلمية وبنت لمبروزو تشتغل الى الآن مع والدها ومن هذا القبيل ان لمارك الشهير فقد بصره فلم يجد له معينا على معيشته لابنته فكانت تلقى دروساً بالاجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمى وتكتب ما يمليه عليها حتى صار بمعونتها من اشهر علماء التاريخ الطبيعى

هذه الامثلة وغيرها مما يطول شرحه تدلنا على ان المرأة المهذبة يمكنها فضلا عن تربية اولادها ان تعمل

كثيراً من الاعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . واى مصلحة للرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه فى الليل والنهار فى الاقامة والسفر فى الصحة والمرض فى السراء والضراء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شىء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجد فى منفعة زوجها واولادها ؟

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصفاتها امام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بفاضل الاعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته وتذيب همومه ؟

هذه الحياة التى لا يشعر الرجال عندنا بشىء منها هى من اعظم الينابيع للاعمال العظيمة . واقول ولا اتردد

فى ما اقول اذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا الى حد
يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا واستمر
الرجال على اهمال النساء وتركهن فى هذه الحالة الساقطة
التى يتألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون ولم يبادروا
باعداد المرأة بالتربية الى ان تكون رفيقة مساوية للرجل
وعشيرة عارفة بادارة بيتها وصديقة تفدى زوجها باعز ما
لديها وأما محيطة بما يجب عليها لاولادها عارفة بطرق
تربيتهم فكل ما فعلناه الى الآن وكل ما نفعله فى المستقبل
لترقية شأن أمتنا يضيع هباء منثوراً

هذا هو الحق الذى انتهينا اليه عند بحثنا عن
اسباب تاخر الامم الشرقية عموماً والاسلامية خصوصاً

هذا الرأى الذى عرضناه على القراء اولا نعرضه
عليهم الآن مرة ثانية . وكل ما نرجوه منهم هو ان
« لا يضربوا به عرض الحائط » كما اشار عليهم كثير من
اصحاب الافكار والكتاب الذين طعن اغلبهم فى كتاب
تحرير المرأة قبل ان يقرأه

لا خلاف فى ان الامم الاسلامية فى حالة ضعف شديد تستدعى المبادرة الى علاجها. فيتعين علينا ان اشخص هذا الداء بمعرفة اسبابه اولا ثم نبحث عن دوائه كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هى اسباب الداء ؟

اسبابه تنحصر اما فى الاقليم او فى الدين او فى العائلة

اما الاقليم فلا يصح ان يكون سبب الداء . لانه من المعلوم ان الامة المصرية من اقدم الامم ويعترف لها المؤرخون بالسبق فى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التى انتقلت منها الى اليونان ثم الى الرومان ثم الى العرب ثم الى اوروبا . وظهر فيها اول دين كبير فى العالم وتمتعت مدة قرون بمدينة مشهورة لا تزال آثارها مشهودة الى الان وستبقى خالدة فى ما لا يزال . وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة اجيال بل اتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الامم العظيمة وقهرتها واخضعتها لحكمها . ثم بعد فقد استقلالها حافظت على

وجودها وهيئتها رغماً عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التى توالت عليها . وهذا يدل على انها وهبت فى طبيعتها حياة قوية وانها مستعدة للمقاومة فى المزاحمة مع الامم الاخرى . فاذا كان الاقليم لم يعق الامة المصرية عن اتيانها باعظم الاعمال ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون فلماذا يصير مانعاً لها من الترقى فى هذه الايام التى قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم؟

على انه لم يثبت بأدلة صحيحة يسندها العلم ان الحرارة تأثر فى الجسم والعقل تأثيراً سيئاً . وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقاليم تفاوت فى الامزجة والاخلاق بين الامم فمن المشاهد ان سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة وهذه الصفات النفيسة تعوضهم ما قد ينقصهم من الجلد والمثابرة فى العمل

وفى الشرق اقاليم باردة وسكانها ليسوا اقل انحطاطاً فى المدنية من سكان الاقاليم الحارة

واما نسبة تأخر المسلمين فى المدنية الى الدين

الاسلامى فهو خطأ محض . من ذا الذى يقول ان الدين الاسلامى الذى يخاطب العقل ويحث على العمل والسعى يكون هو المانع من ترقى المسلمين وقد برهن المسلمون ان دينهم عامل من اقوى العوامل للترقى فى المدنية ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخى ان يرتاب احد فى هذه المسئلة . نعم ان الدين الاسلامى الصحيح قد تحول اليوم عن اصوله واستتر تحت حجب من البدع ووقف نموه وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون وظهر لهذا الانحطاط الدينى أثر عظيم فى احوال المسلمين ولكن هذا الانحطاط الذى ينسب اليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين فى المدنية يحتاج نفسه الى سبب يرد هو اليه فهو سبب ثانوى لا اولى

وعلى هذا فليس ما نراه فى احوال المسلمين ناشئاً عن السببين المذكورين فان أحدهما لا تأثير له بالمرة والثانى يعد من الاسباب الثانوية . بقي عندنا السبب الثالث فهو الذى ينبغى ان تنسب اليه هذه الحال التى نشكو منها

فانحطاط المسلم كانحطاط الهندي والصيني وجميع سكان الشرق ما عدا اليابان ناشئ من حالة العائلة في هذه الجمعيات

وذلك ان العائلة هي اول شئ يقع تحت حواس الانسان في اول نشأته وهي الشئ الثابت المستمر الذي يراه دائما . فاذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال وبهذا التعلق يخطو الخطوة الاولى في سبيل ارتقائه حتى اذا صار رجلا وجد من حاله الشخصي ما يساعده على هذا الارتقاء

فالارتقاء حينئذ له دوران الاول دور اعدادي يقطعه الانسان في مدة طفوليته وصباه وفيه ترتسم في نفس الطفل صفات الترتيب والتنظيم وينشأ فيه الميل الى الفعال الجميلة وتتوجه نفسه الى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة . والثاني دور عملي يقطعه الانسان في سن الرجولية الى آخر العمر

وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون الى الظهور

في العمل

فان اهمل الاعداد في الدور الاول استحال صعود الشخص في درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم في المدارس ومهما كانت التعاليم الادبية او الدينية التي تلقى عليه فهو يعيش كالطائر الذي نص جناحه كلما هم ان يطير سقط . ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم الى حظه ورضي به وانتهى الحال الى ان يفضله على كل شيء سواه

ذلك لان التعليم سواء كان دينياً او علمياً لا يمكن ان يكون له اثر نافع الا اذا وجد من النفس عوناً على النجاح كما ان البذرة مهما كانت جيدة لا تنبت الا في الارض الصالحة لنموها

يقضي اولادنا الآن اوقاتهم في تعلم القراءة والكتابة واللغات الاجنبية ومطالعة العلوم سنين ثم ينتقلون الى علوم اخرى اعلا وارفع من تلك فاذا انتهت مدة الدراسة

ودخلوا فى ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم ان يكونوا بيننا رجالا ذوى احساس شريف وعواطف كريمة واخلاق حسنة وهمم عالية رجالا يشعرون ويعملون ورجونا منهم ان نجنى ثمار هـذا التعليم الذى بذل فى سبيله النفيس من الوقت والمال . ولـكن وا اسفاه نرى آمالنا فيهم خائبة . نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوبا يابسة وهمما صغيرة وعزائم ضئيلة . أما العواطف فهى بالتقريب فيهم معدومة . فلا يروق لأعينهم منظر جميل كما لا ينفرهم مشهد قبيح ولا يعطفهم حنو ولا تبكيهم مرحمة ولا يحترمون كبيراً ولا يستصغرون صغيراً ولا تحركهم منفعة الى عمل مهما عظم نفعه

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم فى أول السن . هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل لا يظهر ولا يقويه ولا ينميه الا التربية البيتية . ولا عامل لها فى البيت الا الأم . فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس فى

نفسه الاخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة .
واشد من هذا كله اثراً فى نفسه ظهورها فى عينيه متحلية بهذه الصفات فيقلدها من غير فكر ثم يعتاد على ذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لا يمكن أن تنسلخ عنها

ولا يكون لنفسه شيء من ذلك اذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع فى روحه مثال من هذه الامثلة . فلو ادركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات فى ذهنه لا ينفذ منها شيء الى باطن نفسه . فلا يحدث له منها شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثاً عليه

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافى فى وصف مايكابد العاشق من مرارة العشق وآلامه وهم لا يعشقون . وخطباءنا يلقون على اسماع غيرهم احسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ولا يأتى قائل منهم بشيء يبرهن به على انه شاعر بما يقول وترى ان

اهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعوراً بالاحساس الديني الحقيقي. وترانا جميعاً منصرفون عن كل شيء ونحن نطلب كل شيء

بينما كنت اكتب هذه السطور اطلعت في جريدة المؤيد على رسالة لحضرة الفاضل ابراهيم بك الهلباوي حررها وهو على ظهر المركب التي سافر فيها في هذا العام الى اوربا وقد اعجبني من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخي كاتبها الصدق في القول والذي دعاني للكلام عليها هنا هو ان حضرة ابراهيم بك الهلباوي شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد في صدره عند ما مر على جزيرة كريد فقال :

« هذه أول مرة انكشفت فيها لعيني هذه الجزيرة »
« بعد انسلاخها من حكم الدولة واعطاء اوربا اياها »
« هدية لثاني انجال ملك اليونان . وقد حاولت حال »
« المرور بها ان اتذكر بحسرة وجزع الحوادث التي »
« سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير من قتل »

« وسفك دماء مسلمي هذه الجزيرة وما نالهم من »
« الذل والمظالم ثم مصادرة من بقي منهم في اموالهم »
« وثمرات اتعابهم كمسلم حقيقي يألم بمصائب اخيه فلم تجد »
« نفسي في جسمي دماً يتأثر ولا بقلبي محلا للاسف »
« أو الرحمة »

« ولما تساءلت مع وجداني عن سبب هذا الجمود »
« وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب قلت »
« لعل ذلك لكثرة ما لحقنا منها حتى تدمم القلب »
« واوشك أن يقال عنه تكسرت النصال على النصال »
« وقد بدا لنفسي جواب آخر على عدم الاكتراث »
« بما اصاب مسلمي كريد لم يبعد عني اختلاج النفس »
« بالاسف على مصابهم فقط بل اوشك أن يخجلني »
« حيث مر بخاطري حسبان ذلك المصاب . ذلك اني »
« قبل المجيء الى الاسماعيلية كان آخر سفري على خط »
« السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ثم اتجه »
« القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهي المرة الاولى في »

« حياتى التى مررت بها على التل الكبير والقصاصين »
« والمحسمة ونفيشة هذه المواقع التى اتخذت خطوطاً »
« للدفاع ضد الجيش الانكليزى فى سنة ١٨٨٢ والشأن »
« ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الاولى يحرك »
« لوعة الاسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها »
« ومع ذلك لم اجد ألماً أو اضطراباً »

هذا ما كتبه احد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن . واذا اردنا أن نصدق فى القول مثله يجب علينا ان نعترف اننا اذا مررنا نحن أيضاً على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا اكثر مما تحركت نفسه ولا تشعر باكثر مما شعر

ومن البديهى أن هذا الجمود كما سماه صاحب هذه المقالة ليس منشأه ان ابراهيم بك الهلباوى رجل جاهل او لا يعرف ان محبة الوطن واجبة . وليس سبب هذا الجمود ما توهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة ما لحقنا من المصائب لان توالى المصائب لا يذهب

بالشعور من النفس ولا يضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم

وانما السبب الحقيقى لفقد الشعور الى هذا الحد هو اهمال تربية العواطف عندنا في زمن الطفولية وتبع ذلك ان اعصابنا اصبحت لا تتأثر الا بالاحساسات المادية التي تقع عليها مباشرة وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفيسة

رأيت مدة وجودى فى فرانسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبي على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين . فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيي العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه . فاحسست ان الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر امامه وأثار فيه جميع الاحساسات التى بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور الى انهم صاروا يعملون اعمال الاطفال فكان الكثير من النساء

يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن واغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم في الطريق

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها وعنها من الاحاديث امام الاطفال ينغرس الشعور الوطني في نفوسهم ويزهر ويثمر . وهكذا الحال في تربية الفضائل الاخرى

فانحطاط المصري انما هو ناشيء من حرمانه من هذه التربة الاولى . ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات ولا يهتم أحد من اهله الا باعطاءه التغذية والملبس . فهم يعتنون به كما يعتني اي انسان بحيوان يحبه . فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الاساس هو بناء على الرمل لا يلبث ان ينهار مهدوماً

وبالجملة ان التربية تنقسم الى قسمين تربية العقل وهي التي توجه مدارك الانسان الى اكتشاف حقائق العالم وتربية الروح وهي التي توجه ارادته الى الخير وتميل باحساسه الى الجميل . وكلتاهما لازمتان لسعادة الانسان

اما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس واما التربية الروحية فلا تكتسب الا فى العائلة. ولا يمكن اكتسابها فى العائلة الا اذا كانت الام فى اول من يديرها ولا يمكن ان تديرها الام الا اذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلى والادبى لهذا قلنا ان المصريين اذا أرادوا ان يرتقوا وجب عليهم ان يعملوا الارتقاء شأن المرأة المصرية

ومما يوجب الاسف ان المصريين لم يفهموا الى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم فى حين ان رجالا من مسلمي الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بابحاثهم الى ادراك شأن المرأة فى الهيئة الاجتماعية وأحاطوا بالوظيفتها من الاهمية . وقد قام رجلان من اعاظمهم احدهما الامير على القاضى والثانى عناية حسين

فنشر الاول مقالة جليلة موضوعها النساء فى الاسلام ترجمت فى مجلة المقتطف فى عدديها الصادرين فى شهر يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب ما يأتى :

«ما من مقياس يقاس به ارتقاء الامم مثل منزلة»
«المرأة فيها فاذا اراد مسلمو الهند ان يرتقوا وجب»
«عليهم ان يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التى كانت فيها»
«فى صدر الاسلام»

«وكفا من تاريخ روسيا الحديث دليل على»
«ارتباط تقدم الامم المادى والمعنوى بمقام المرأة فيها»
«فقد بقيت نساء الاشراف فى روسيا متحجبات الى»
«بداءة القرن الثامن عشر يمشن فى بيوت بل فى»
«سجون لا يدخلها النور ولا الهواء أسدلت الاستار»
«على كواها واحكمت الاقفال على ابوابها ووضعت»
«مفاتيحها فى جيوب الآباء والازواج. واذا اريد نقلهن»
«من مكان الى آخر نقلن فى محفات متحجبات»
«متبرقعات كما تنقل النساء فى بلاد الهند. فلما فكت»
«قيود النساء وجارين الرجال فى العلم والتهذيب وصرن»
«من دعائم الهيئة الاجتماعية صارت بلاد الروس من»
«اعظم ممالك الارض»

« كانت شمس المعارف فى المشرق فانتقلت الى »
« المغرب فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى فى »
« اعلاء شأن نساءنا له عندنا شكر ولكن لا يغير الله »
« ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »
« ولا بد ان يسأل سائل هل كان نساء الخلفاء »
« وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالاكفان كالنساء »
« الشرقيات فى مدن الشرق الآن . ويظهر لى انهن »
« لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن كما »
« تستر نساء الاستانة الان باليشمك فيخفى غصون »
« الشيخوخة ويظهر جمال الصبا اما البرقع الشامل »
« للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع الا فى اواخر عهد »
« السلاجقة واما الاحتجاب بالبرده على ما هو شائع »
« الان عند مسلمى الهند وغيرها من البلدان فلم يكن »
« معروفاً فى تلك العصور والنساء من الطبقات العليا »
« كن يظهرن امام الرجال غير متبرقعات »
« واستخدم العرب الخصيان فى عهد معاويه آخذين »

« ذلك من الروم واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد »
« ا الاموى الثانى وأمر المتوكل — نيرون العرب - »
« بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات »
« العمومية . ولكن بقى النساء يختلطن بالرجال الى »
« اواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار »
« ويعقدن مجالس الانس ويمضين الى الحرب لابسات »
« الحديد ويساعدن اخوتهن وازواجهن فى الدفاع »
« عن القلاع والمعاقل »

« ولما اضمحل شأن الخلفاء فى اواسط المائة السابعة »
« ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون »
« فى هل لايليق بالنساء أن يظهرن ايديهن او اقدامهن »

والتى الثانى خطبة فى جمعية الاداب الاسلامية بمدارس فى الهند ترجمت فى جريدة المؤيد الصادر فى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتى .

« ولدينا نقطة أخرى عظيمة الاهمية لا ارى »
« مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها »

« اذ لا ترتقى امة ولا تسمو مملكة الا بواسطتها وهذه »
« النقطة هى تربية البنات . اذلم تتحققوا ايها السادة ان »
« النساء والرجال توءمان عاملان فى الهيئة الاجتماعية »
« انهم اما ان يقوموا معاً واما ان يسقطوا معاً فلا سبيل »
« الى الرقى ولا وسيلة الى التقدم والنجاح ولا نقدر ان »
« نقول ان اساس امتنا موطد الدعائم ثابت البنيان »
« تذكروا ان الطفل هو والد الرجل وانه متى كانت »
« الامهات جاهلات لا يقدرون على بث انوار المبادئ »
« الادبية والتهذيبية فى نفوس اولادهن ولا يرقين »
« عقولهن ولا يقوين ابدانهم بالوسائل الصحية فاننا »
نبقى الى الابد فى آخر صف من صفوف الامم »

فانظر الى ما يكتبه رجال من اهل الفقه والعلم فى الهند والى ما كتبه فقهائنا وكتابنا حيث قالوا ان المرأة لا شأن لها فى ارتقاء الامم وانها لا يجب ان تتعلم الا ما يلزمها من فرائض دينها للعبادة ويسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة وقاموا جميعهم ينصحون الناس

بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير فى طريق الكمال الذى اشرنا اليه بحجة انه تقليد للغربيين فى عاداتهم ويوهمون ان الغربيين انفسهم متألمون من حال نسائهم !

وقد بينا بالتفصيل الاسباب الاجتماعية التى يلزم لاجلها العناية بشأن المرأة و خراجها من الحجر الذى سقطت تحته ازمانا طويلة وبرهنا على انها هى صاحبة السلطة على الاخلاق والقابضة على زمام الآداب وانها هى التى تسوق الامم فى طريق الخير والشر وانها لا يمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية الا اذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والادب

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب فى شأن المرأة الغربية ومع علمنا بما هى عليه . ولا نرى مانعاً من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الامم الغربية . لاننا نشاهد ان الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوماً ونرى ان البلاد التى يتمتع فيها النساء بحريتهن

وبجميع حقوقهن هى التى تسير كالدليل امام الامم الاخرى وتهديها في سبيل الكمال فى المدنية. ومن جهة اخرى نرى ان جميع الامم التى حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف وهى فى ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة لا يظهر التفاوت بينها مع اختلاف الاقاليم وتباين الشعوب والاديان

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ولا يمكن العاقل ان يجادل فيه

اما مازعموه من ان الاوروبيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير ما نحن فيه. ومسئلة النساء التى هي موضوع بحثنا فى بلادنا غير مسئلتهن فى مايكتبه بعض الكتاب الغربيين . فاننا فى هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسميه وانالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من اداء وظائفها في البيت . وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربى مهما انحطت درجته فى العقل والاحساس

وانما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ومن طلبهن مساواة الرجال في حقوقهم السياسية

وحينئذ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة او خلط بين موضوع وموضوع . اذ كل انسان يميز بين تقرير الحق و بين استعماله

هذه حرية الصحافة هنا وفي بعض بلاد اوروبا قد ساء استعمالها الى حد ان صار كل انسان يتألم منها ولكن لم يفكر عاقل في ان يدعي ان الواجب هو الحجر على الافكار لان هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذى يرام معالجته

فالاسباب التي يبنى عليها كتابنا رأيهم في الحجر على حرية النسا هى عين الاسباب التى انتحلتها الحكومات الشرقية لحرمان ابنائها من حرية القول والكتابة والعمل وهى التى اغرت متأخرى المسلمين بقفل باب الاجتهاد في التوفيق بين احكام الدين وحاجات الامم على اختلاف

الامصار والاعصار مع عدم الخروج عن الاصول العامة التي قررها الكتاب والسنة الصحيحة وهي التي زينت للاباء عندنا ان يستعملوا في تربية اولادهم وسائل القسوة والغلظة وهي التي كانت تقضى على الاحكام عندنا من عهد ليس ببعيد بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها اثمان اللحم والخضار والمسلى واغلب ما يباع ويشترى في الاسواق

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التي تظهر في بعض احوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم. وقد يكون من اسباب تلك الغفلة ان وجوه المنافع في احوال الناس وهي جهات حسنها تخفى عادة على من ينظر اليها نظراً سطحياً أما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم لانها تتشكل باشكال الجرائم والفظائع التي تنفر منها النفوس فاول ما تتجه اليه النفس النافرة هو ان تمحو هذا الاثر بأية طريقة. وأقرب الطرق واسهلها في بادىء الامر هو العنف والشدة

ولكن المتأمل اذا روى فى الامور يجد ان لسير الانسانية قوانين خاصة يجب مراعاة احكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها سواء في الافراد او فى الاجتماع وان كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفرد او الهيئة الاجتماعية

اذا تقرر هذا فسلب المرأة حريتها هو اكبر مخالفة لقوانين نموها العقلى والادبى . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من اتيان ما ينشأ عنه ذلك الضرر ولكن من المحقق انه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه

وبالجملة فاننا لا نهاب ان نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية حتى لو كان من المحقق ان يمررن فى جميع الادوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات لاننا على

ثقة من ان جميع المطالب التي يطمح اليها نساء الغرب في هذه الايام ليست من المسائل التي يعضل حلها ويدوم القلق بسببها بل يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق ورب سائل يسأل الى مَ تنتهي هذه الادوار التي تنتقل فيها النساء فالجواب ان ذلك سر مجهول ليس في طاقة احد من الناس أن يعلمه . وكما اننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتي سنة كذلك لا يمكننا ان نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة . وانما نحن على يقين من أمر واحد وهو ان الانسانية سائرة في طريق الكمال . وليس علينا بعد ذلك الا ان نجدّ السير فيه ونأخذ نصيبنا منه

التربية والحجاب

لولم يكن في الحجاب عيب الا انه مناف للحرية الانسانية وأنه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها فى حكم القاصر لاتستطيع أن تباشر عملا ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها فى تدبير شؤونها المماشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل ـ لولم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده فى مقته وفى ان ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرر ان تربية المرأة من الضرورات التى لا يمكن ان يستغنى عنها فما هى التربية التى تناسبها ؟ هل

يناسبها تربية كتربية الرجل او تخص بتربية أخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب او لا بد فيها من ابطاله وهل يعمل فيهـا على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة او يرجع فيهـا الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل فى باب التربية والحجاب وقد دار البحث والجدال فيها فى العام الماضى بين كثيرمن الكتاب والآن نريد ان نبدى رأينا فيها على غاية من الوضوح

ففى المسئلة الاولى ـ لا نجـد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل

اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان تتعود على الرياضـة كما تفعل النساء الغربيات التى تشارك اقاربهن الرجال فى اغلب الرياضات البدنية . ويلزم ان تعتاد على ذلك من اول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع والا ضعفت

صحتها وصارت عرضة للامراض. ذلك لان النواميس الطبيعية تقضى بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم وما يفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها. والامراض التى تصيب الانسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست باقل عدداً ولا باخف ضرراً من الامراض التى تصيب من ينفق قوته ولا يعوض بالتغذية ما فقد منها. ثم أن ما تقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولا يحتمله من النساء الا قويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى. أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات ولذلك فان اكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الاولى وكثيراً ما يهلكن فيها فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس اكثر من ثلاثين فى الالف

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والامراض كذلك يلزم العناية بصحتها حرصاً على صحة اولادها ووقايتهم من العلل. لان ما يعرض على مزاج الام ومايكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

وأما من جهة التربية الادبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق وائتمنتها عليها . فهى التى تصنع النفوس وهى ساذجة لا شكل لها فتصوغها فى اشكال الاخلاق وتنشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقا للامة بعد ان كانت اخلاقا للعائلة كما كانت اخلاقا للعائلة بعد ان كانت اخلاقا للأم . هذا يدلنا على المرأة الصالحة هى انفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي اضر عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب فى ما وقر في نفوس الناس فى كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا

تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلى من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل

بقى علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية . هذه التربية هى عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التى ترمى اليها هى ان يعرف الانسان ما فى الكون من الموجودات وفيها نفسه حتى اذا عرف ذلك علي حقيقته امكنه ان يوجه اعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة المعرفة فيعيش سعيداً

والمرأة كالرجل على حد سواء فى الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ولا فرق بينها وبينه فى التشوق الى استطلاع عجائب الكون والوقوف على اسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها

ومهما عظم اشتغال المرأة متزوجة او خالية ذات اولاد أم لا فانها تجد من الوقت ما تثقف فيه عقلها وتهذب نفسها

ولو خصص نساءنا للمطالعة عشر الوقت الذى يقضينه اليوم في البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الامة المصرية ارتقاء باهراً

ولا تتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضاً لتعلم اصول العلوم الطبيعية والاجتماعيـة والتاريخية لـكى تعرف القوانين الصحيحة التى ترجع اليها حركات الكائنات وأحوال الانسان كما انها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها

والمهم فى هذة التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد . حتى اذا انتهت مدة تعليمها فى المدارس استمر شوقها الى الحق فتتحرك دائماً وتعتبر به

وأضيف على ذلك انه ينبغى على البنت ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بد هنا من استلفات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل في نفسها الى الفنون الجميلة . وانى على يقين من ان اغلب القراء لا يستحسنون ان تتعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة فى الاشتغال بهذه الفنون ومنهم من يعدها من الملاهى التى تنافى الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون فى بلادنا الى حد يأسف عليه كل من عرف ما لها من الفائدة فى ترقية احوال الامم

فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم لان العلم يعرفنا الحقيقة وهذا الفن يحببها الينا لانه يبديها لنا على الشكل الاكمل الذى يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل الى الكمال . والكمال شئ يدركه عقلنا لكنه لا يقع تحت حواسنا فلا يمكننا ان نتصوره الا اذا صار مجسما امامنا فى شكل لطيف نحس به . ومتى رأيناه فى هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته . وكلما كان صاحب

الفن ما هراً في فنه حاذقا فى صناعته كان صنعه اقرب للكمال وكانت النفس اكثر ميلا اليه واشد اعجابا به واعظم سروراً بالاحساس به

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها افصح لغة تعبر عما فى ضمائرنا والذ مايرد على مسامعنا ومن احسن ما وصفت به قول افلاطون.

« ان الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ويسمو بها »
« الفكر ويرتقى الخيال وتبث في النفس الفرح والسرور »
« وترفعها عن الدنايا وتميل بها الى الجمال والكمال . »
« فهى من عوامل الادب للانسان »

هذه هى التربية التى نود ان تكون للبنات وقد بيناها اجمالا لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلا . هذه هى التربية الكاملة التى تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لان تكون انسانا يكسب عيشه بنفسه وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء وأماً صالحة لتربية أولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمرها فما الذى ينبغى ان تكون عليه بعد ذلك؟ وكيف تعيش أتحجب فى بيتها وتمنع عن مخالطة الرجال او تطلق لها الحرية فى ذلك؟ هذا هو موضوع البحث فى المسئلة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط

رأى المنتقدون على تحرير المرأة اننا تطرفنا فى مسئلة الحجاب واننا اشرنا برفعه تقليداً للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائه والمحافظة عليه وقالوا ان الذى حط بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلو تربت تربية حسنة امكنها وهى فى الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام

على اننا بعد ان دققنا النظر فى جميع ما قيل او كتب فى هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار

البحث فيه الا وثوقاً بصحة ماذهبنا اليه

ولا نرى سبباً للخلاف بيننا وبين مناظرينا الا الاختلاف فى فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هى التعلم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير فى المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانه متى نال هذه الورقة السميكة التى سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) عد بالغاً فى العلم والادب حد النهاية . ونحن على خلاف مارأوا نعتقد ان التربية لا تقوم بالمكث فى المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيده الصبي من ذلك فى ايام التحصيل الاولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه

ذلك لان الصبي فى السنة الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمره لا يعرف من العلم الا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها فى جمل مختصرة ومهما كانت هذه القضايا علمية او ادبية فلا قيمة لها الا بظهورها فى العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التى تحدد دائرة

تطبيقها والحد الذى يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التى تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها هذه التطبيقات هى الواسطة الوحيدة فى فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الا الفاظ وخيالات

لهذا لا يخطر على بال رجل عاقل ان يسلم نفسه الى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولا يختار محاميا للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمنا كافياً

وكذلك الحال فى الآداب والاخلاق اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه ولكن لا شيء اصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعى قوة عظيمة فى الارادة ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الادبية

وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها

فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هى منابع للعلم والآداب الصحيحة. بها ترتقى النفوس الكريمة حتى تبلغ اعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدركات

قال سبنسر فى هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لا فائدة من التربية التى تجعل الانسان مستودعاً »
« لافكار غيره لأن الكلمات التى توضع فى الكتب »
« لا يمكن ان تنتج معانى الا على نسبة التجارب »
« المكتسبة »

وقال ادمون ديمولان عند كلامه على التربية الادبية نقلا عن ترجمة صديقى احمد فتحى باشا زغلول:

« ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى »

ان « الامم التى بلغت فيها همة الانسان منتهاها هي »
« ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق
وتبقى المحامد وبيانه ان المؤثر الادبى انما يجعل المرء
قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس
من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها
اشد فعلا من الحياة الملية التى يتعلم فيها ان لا اعتماد
الا على نفسه . وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب
اكثر من تلك الحياة . فهى ألتى تقود المرء الى الحياة
الحقيقية . وهى المدرسة الطبيعية التى تريه كيف
يتحمل المتاعب والرزايا وهى الاسهل تناولا والاكثر
شيوعاً وطلاباً . تلك ضرورات اشد فعلا فى النفوس
من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين
الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج
من الاخرى . ذلك لان الاعمال تدعو الى العمل
اكثر من الاقوال

فالتجارب هى اساس العلم والادب الحقيقى

والحجاب مانع للمرأة من ورود هـذا المنبع النفيس لان المرأة التى تعيش مسجونة فى بيتها ولا تبصر العالم الا من نوافذ الجدران او من بين استار العربة ولا تمشى الا وهي كما قال الامير على القـاضى ملتفة بكفن لا يمكن ان تكون انسانا حيا شاعراً خبيراً باحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

ولا يكفى لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعيه التى يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين فى المدرسه ثم تنتقل منها الى بيت تحجب فيه بقية عمرها بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ونشركها في حياتنا الطبيعيه يلزم أن نضع يدنا فى يدها ونسير معها فى الارض ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعه ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر يلزم ان تقاسمنا أفكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يعرض فيهـا من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملنا على رعاية

الحشمة والتأدب فى القول

يقول معترض : « انا نراك تريد ان تحسن حال»
« المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية فهلا »
«أعرت تمدننا القديم الذى كان من أصوله احتجاب»
«النساء نظرة وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى»
«مجدها القديم فتلفت الى اصوله لفتة علمية ترى انه»
« هو المجد الصحيح الذى يجب ان نشد له رواحل »
«العزائم والذى سيتضح للعالم اجمع يوما ما انه هو »
«نفس الكمال الذى ينشده الانسان ويلتمسه الوجدان»

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطلاوة لفظه وربما ينجذب اليه لانه يحرك الميل الغريزى الموجود فى كل انسان الى التعلق بآثار الآباء والاجداد . ولكن الاجدر بنا ان لانجعل للفظ تأثيراً فينا الى حد يذهلنا عن الحق . وعلينا ان نأخذ أهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لايحتاج الى التحريض والترغيب لانه

حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها فهى مستغرقة فيها من ذاتها وانما الذى يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضار واعتناق مستقبل نافع

اذا أمكننا ان نأخذ تلك الاهبة كان من أهم ما يجب علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامى القديم ونرجع اليه . ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الامة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان

ظهر الدين الاسلامى فى جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون فى حال البداوة أى فى أدنى الحالات الاجتماعية فاوجد بينهم رابطة ملية واخضعهم الى رئيس واحد ووضع لهم شرعاً نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة فى معاملاتهم من قديم الزمان . ولما امرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الامم الاخرى واستولوا عليها ولم يكن

ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الامم فى العلوم والصنائع ولكن كان بروح الوحدة التى بعثها الاسلام فيهم مع استعدادهم الفطرى للقتال . فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الامم كثيراً من العلوم والصنائع والفنون فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم وسمحوا لاولئك المغلوبين ان يأتوا فى ترقيتها بما شاؤا وظهرت عند ذلك نهضة علمية كما هو الشأن فى الامم عقب كل انقلاب يجرى لغاية صالحة استمرت مدة اربعة قرون تقريباً

على هذين الاساسين شيدت المدنية الاسلامية الاساس الدينى الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . والاساس العلمى الذى ارتقت به عقول الامة الاسلامية وآدابها الى الحد الذى كان فى استطاعتها ان تصل اليه فى ذلك العهد

ولكن لما كان العلم في تلك الاوقات فى أول نشأته

وكانت اصوله ضروباً من الظنون لا يؤيد اكثرها بشيء
من التجارب كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين
فتغلب الفقهاء على رجال العلم ووضعوهم تحت مراقبتهم
وزجوا بانفسهم فى المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث
انهم لم يأتوا اليها من بابها ولم يجهدوا أنفسهم فى فهمها
أخذوا يؤلون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا
منها ادلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على ان
يسيئوا الظن بها وماز الوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم
بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه
وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بان العلوم جميعها باطلة الا
العلوم الدينية . بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى
قالوا فى العلوم الدينية نفسها انها لا بد أن تقف عند حد
لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . فقرروا ان ما وضعه بعض
الفقهاء هو الحق الابدى الذى لا يجوز لاحد ان يخالفه
وكانهم رأوا من قواعد الدين أن تسد أبواب فضل الله
على اهله اجمعين

هذا النزاع الذى قام بين اهل الدين واهل العلم
ولا أقول بين الدين والعلم لم يكن خاصا بالامم الاسلامية
بل وقع كذلك عند الامم الاوروبية . ولكن لما كانت
هذه الامم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب
وكان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينها لم تحتج
أوربا الى زمن طويل فى اكتشاف الاصول الحقيقية
لتلك العلوم. وقد نالت منها في مائتى سنة ما لم ينله غيرها
فى آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية
يجر بعضها بعضا ويرشد بعضها الى بعض. فمنها اكتشاف
قوانين سير الكون وتحليل الضوء وسرعة سيره وكيفية
تكون الاصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها وعلمت
ماهية الحرارة وكيفية تكون الكرة الارضية وحقيقة
شكلها وتكون طبقات الارض وتقادم الاعصار عليها وعلى
سكانها وضروب التغييرات التى طرأت عليها والادوار
التى تقلبت فيها من وقت ان كانت كتلة نارية الى ان ظهر
فيها النوع الانسانى بعد جميع الانواع الاخرى. ثم عرفت

قوانين الحياة ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم وخصائص قوى الادراك وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى. وصححت وكملت أصول الكيمياء والطبيعة

من هذه الاكتشافات أخذ الكتاب والفلاسفة ما دعت اليه الحاجة ليعلموا الانسان من اين اتى والى أين يذهب وما هو مستقبله ووضعوا أساس العلوم الادبية والاجتماعية والسياسية

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر فى أن يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوروبا بعد النزاع والجهاد وانتهى الحال بان صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة

فاذا كان التمدن الاسلامى بدأ وانتهى قبل ان يكشف الغطاء عن أصول العلوم كما بيناه فكيف يمكن أن نعتقد ان هذا التمدن كان «نموذج الكمال البشرى» يهمنا أن لا نبخس اسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم

ولكن يهمنا مع ذلك ان لا نغش انفسنا بان نتخيل انهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس وراءها غاية نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها. لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الاسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه لانه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة ويجب عليه أن يعجب به لانه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها فى بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية

أما من جهة العلوم فالامر ظاهر لما سبق بيانه

واما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين فكان الحاكم وعماله يجرون في اداراتهم على

حسب ارادتهم فان كانوا صالحين رجعوا الى اصول العدالة بقدر الامكان وان كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ولم يكن فى النظام مايردهم الى اصول الشريعة

ربما يقال ان هذا الخليفة كان يولى بعد ان يبايعه افراد الامة وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الامر . ونحن لا ننكر هذا ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب الا بعض دقائق هي سلطة لفظية : اما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الامر . فهو الذى يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الاحكام ويدير مصالح الامة مستبداً برأيه ولا يرى من الواجب عليه ان يشرك احداً فى امره

ومن الغريب ان المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ماوصلت اليه الامة الرومانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ

مصالح الامة وحريتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى ادارة شؤونها

واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الاعمال التى وجدوا انها تستحق العقاب ويحدد العقوبات عليها بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء . مع ان بيانِ الجرائم وعقابها هو من أوليات اصول العدالة

ولست محتاجا ان اقول انهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان هذه العلوم حديثة العهد . واذا اراد مكابر ان يتحقق من ذلك فما عليه الا ان يتصفح مقدمة ابن خلدون وهو الكتاب الفرد الذى وضع فى الاصول الاجتماعية عند المسلمين يرى ان الاصول التى اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطأ ويندهش على الخصوص عند ما يرى ان هذا الكتاب الذى وضع للبحث فى المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة فى العائلة التى هى أساس كل هيئة اجتماعية

فاذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى فما الذى يطلب منا ان نستعيره منها ؟

كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجدانها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفى في عقد زواجه بان يكون أمام شاهدين ويطلق زوجته بلا سبب أو باوهى الاسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمر الى الآن على ما هو مشهور ولم يفكر أحد من الحكام او الفقهاء في وضع نظام يمنع ضرر انحلال روابط العائلة . وأقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل ان يقرّ وامثلاان ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لا بدان تكون امام مأمور شرعى حتى لا تبقى هذه الشؤون موضعاً للريب ومحلا للشبهة ومثاراً للنزاع والشقاق

اين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التى وضعها الاوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية . بل أين هى من القوانين اليونانية والرومانية

التى لم تغفل فى جميع أدوارها عن اهمية العائلة وشأنها فى الهيئة الاجتماعية فاى شيء من هـذا يمكن ان يكون صالحـا لتحسين حالنا اليوم ؟

بقى علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامى من جهة الآداب . يعتقد اهل عصرنا ان المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع أنواع « الـكمالات الاخلاقية الصحيحة » وهو اعتقاد غير صحيح او على الاقل مبالغ فيه

اما من جهة أصول الادب فالمعلوم ان المسلمين لم يأتوا للعالم باصول جديدة . فقد سبق المسلمين أمم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم وقد كانت تلك الامم تعرف تلك الاصول وضمنتها كتبها ونزلت على بعضها فى وحى سماوى

وأما من جهـة عمل المسلمين على مقتضى تلك الاصول الادبية فالتاريخ يشهد على ان كل عصر لا يخلو من الطيب والردىء والحسن والقبيح وقد وصلت الينا اخبار العرب مدونة فى الكتب التاريخية والادبية

فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم واطلعنا على
شعرهم وامثالهم وأغانيهم فما وجدنا زمناً من الازمان خاليا
من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة
رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
الى آخر أيامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن
التباغض والحقد وحب الذات حتى فى الاوقات التى
كانت فيها الدولة مشتغلة باهم الحروب مع الامم الاخرى
رأينا أحد أولاد على رضى الله عنه تزوج باكثر من مائه
امرأة حتى التجأ والده ان ينصح الناس بان لا يزوجوه
بناتهم . رأينا من الرجال من كان يعترض النساء فى
الطريق ويختلس النظر اليهن من خروق الحائط رأينا
من أمرائهم واعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعى
مايقول فى مجالس تحضرها الجوارى وتطرب الحاضرين
بنغمات الموسيقى . رأينا من شعرائهم من يستجدى
العطايا ويمد يده ملتمساً رزقه من فضلات الامراء
والاغنياء ومنهم من يمدح نفسه ويثنى عليها ويذهب

فى ذلك الى حد ليس بعده الا الجنون او يتغزل فى ولد او يهجو خصمه بعبارات الفحش والفاظ الوقاحة التى يستحى من تصورها فضلا عن التفوه بها . رأينا من مؤرخيهم من يزور فى التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الاحاديث ويضعها لغايته الذاتية

فاى زمن من الازمان السابقة كان منزهاً عن العيوب حتى يصح ان يقال انه « نموذج الكمال البشرى » الكمال البشرى لايجب ان نبحث عنه فى الماضى بل ان اراد الله ان يمن به على عباده فلا يكون الا فى مستقبل بعيد جداً

من اغرب ما اعتاد عليه العقل الانسانى ان يظن ان العصر الذى هو فيه احط منزلة فى الكمال من العصر الذى سبقه ومنشأ ذلك ان الابناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم فالكمال عندهم ما وجدوا عليه آباءهم ويزيد ذلك تقريراً فى نفوسهم ان الآباء يستهجنون دائماً ما صار اليه ابناؤهم مما لم يكن

معهودا لهم وهم لا يستطيعون ان يغيروا انفسهم فيكون وهم الابناء وغرور الاباء كل منهما عونا للاخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضى

ولو صح مايزعمون لكان اكمل انسان هو اول من وجد من نوعه ولاستمر النقص عصر بعد عصر الى هذا اليوم ولكانت نهاية الانسان أن يصير حيوانا اعجم مع انه من الثابت ان عصوراً مضت على النوع الانسانى وهو فى ادنى مراتب الانسانية ثم ارتقي بالتدريج الى ان وصل الى هذه الدرجة العليا التى يحق له ان يفتخر بها

متى تقرر ان المدنية الاسلامية القديمة هى غير ما هو راسخ فى مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليه لا بما كانت فى الحقيقة عليه وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة فسيان عندنا بعد ذلك ان احتجاب المرأة كان من اصولها اولم يكن وسواء صح ان النساء فى ازمان خلافة بغداد والاندلس كن يحضرن مجالس الرجال اولم يصح فقد صح ان الحجاب هو عادة

لا يليق استعمالها في عصرنا

ونحن لا نستغرب ان المدنية الاسلامية اخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطأها في ذلك اكبر من خطأها في كثير من الامور الاخرى

وغني عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التي يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التي اختصت بها. ذلك لان عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الا أثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الامم التي سبقت

والذي أراه ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الاهواء التي يجب ان ننهض جميعاً لمحاربتها لانه ميل يجرنا الى التدني والتقهقر. ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الا شعورنا باننا ضعاف عاجزين عن

انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن ان تستقيم بها مصالحنا . فهو صورة من صور الاتكال على الغير كأن كلا منا يناجي نفسه قائلا لها . اترك الفكر والعمل والعناء واستريحي فليس في الامكان ان تأتي بابدع مما كان

هذا هو الداء الذي يلزم ان نبادر الى علاجه . وليس له من دواء الا اننا نربي اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها

اذا أتى هذا الحين ونرجو ان لا يكون بعيداً انجلت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا انه من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة وان أحوال الانسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم

لهذا نرى ان الامم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق

تربيتها ولغاتها وكتاباتها ومبانيها وطرقها بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والاكل. اما من جهة العلوم والصنائع فلا يوجد اختلاف الا من حيث كونها تزيد أو تنقص فى أمة عن أمة أخرى

من هـذا يتبين ان نتيجة التمدن هى سوق الانسانية فى طريق واحدة وان التباين الذى يشاهد بين الامم المتوحشة أو التى لم تصل الى درجة معلومة من التمدن منشأه ان أولئك الامم لم تهتد الى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية

هذا هو الذى جعلنا « نضرب الامثال بالاوروبيين » ونشير بتقليدهم وحملنا على ان « نستلفت الانظار الى المرأة الاوروبية »

هذه مسألة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيراً فى ان اقف على رأى علماء المسلمين فيها من المتقدمين أو المتأخرين فما وجدت شيئاً وقد نبهنى أحد اصحابى الى كتاب الفه فى هذا الموضوع حضرة

الشيخ حمزة فتح الله المفتش بنظارة المعارف وقد قرأته من أوله الى آخره فوجدته يحتوى على كل شيء ولكنه لم يشتمل على شيء مما وضع الكتاب لاجله . ومن الغريب ان الذين لم يرق فى نظرهم اعجابنا بالاوروبيين اضطروا جميعهم بما فيهم الشيخ الازهرى أن يستشهدوا فى الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الاوروبيين نساء ورجالا

فان كان منهم من يقول انى قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون قصير الباع فى علومهم فانا لا أجادله فى هذا وانما يسرنى ويملأ قلبي بهجة ان أرى كتاباً اسلامياً قديماً أو جديداً يحتوى على حقوق المرأة وما يجب عليها من حيث هى امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة . فان جاءنى من يزعم قلة اطلاعى وقصر باعى بكتاب مثل هذا أثقلته حمداً وشكراً

سيقول أرباب الافكار عندنا انا نسلم بان المدنية الاوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التى توصلت

الى جمعها وانمائها واستخدامها ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للاخلاق والآداب التى تلازمها في كل مكان وصلت اليه

فهم يعترفون للغربيين بانهم أرقى منا فى العلوم والفنون والصنائع. ويعترفون بأن معارفهم أوصلتهم الى توجيه اعمالهم في طريق تحصيل منافعهم باحسن الوسائل الموصلة الى السعادة فى هذه الدنيا ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض وخصوصاً كيفية معاملة رجالهم لنسائهم أو سمعوا بها تغير حكمهم عليهم تغيراً كلياً واعرضوا عن فهم ما هم فيه وصرحوا بأنهم احط منا فى الآداب . هذا الاعتقاد يشبه ان يكون عاماً فينا كما يلاحظه من يقرأ الجرائد ومن يلتفت الى الاحاديث التى تدور بين الناس. وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه

ذلك اننا نذعن بتقدم الغربيين علينا فى العلوم والصنائع لاننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع اطرافنا

فكلما التفتنا الى جهة من جهاتنا وجدنا اثراً منها مشهوداً نراها فى البيت فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع ادوات المنزل واثاثه . نراها فى المدرسة مدة التعليم ثم فى النظامات التى تدور عليها جميع اصول وفروع ادارتنا وحكومتنا . نراها فى الطرق على شكل عمارات فاخرة وحوانيت كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربائية . وبالجملة نرى في كل آن وفي كل مكان برهاناً مادياً لا يمكن معه الا التسليم بأننا متأخرون عن الغربيين كثيراً فى المعارف العلمية والصناعية

وكأننا نريد ان نمحو العار الذى يلحقنا من هذا الاعتراف ونأخذ بثأرنا فلا نجد وسيلة لذلك الان ندعى اننا أرقى منهم فى الآداب وانهم ان سبقونا فى الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم فى الروحانيات وسرائرها

وانما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس فلا يمكن انكاره اما

التقدم فى الامور المعنوية فهو مما لا يدرك الا بالعقل فلا يقف عليه كل انسان ويجد المكابر فى غيبته عن الحس مجالا للانكار . وقد يساعد المكابر فى مكابرته ما يراه او يسمع به فى البلاد الغربية من كثرة الملاهى ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيء العادات التى يتبرأ منها الغربيون انفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون فى محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على ان مساعيهم تعجز عن الوصول الى ما يتمنون. فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب واقمنا منها حجة لتأييد دعوانا

ومما آخذناه على الغربيين فى آدابهم تكشف نساءهم واختلاطهن بالرجال وتمتعهن بالحرية التامة واحترام الرجال لهن. وكثير منا يعد هذه العادات اسبابا لفشو الفساد فيهم ويعتقدون ان جميع نساءهم لا يعرفن العفة وكل الرجال مجردون عن الغيرة

ولما كانت غاية التمدن هى تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر

الفضيلة بين الناس كان لنا الحق فى احتقار المدنية الاوروبية ان صح ما اعتقدناه فيها

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟

اما كون الآدب فى الغرب احط منها فى الشرق فهى مسئلة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ويمكننا ان نجمل الكلام عليها في قليل من العبارات:

ان العداوة القديمة التى استمرت اجيالا بين اهل الشرق والغرب بسبب اختلاف الدين كانت ولا تزال الى الآن سببا فى ان جهل بعضهم أحوال بعض واساء كل منهم الظن بالآخر وأثرت فى عقولهم حتى جعلتها تتصور الاشياء على غير حقيقتها . اذ لا شئ يبعد الانسان عن الحقيقة اكثر من ان يكون عند النظر اليها تحت سلطان شهوة من الشهوات . لانه ان كان مخلصاً فى بحثه محباً للوقوف على الحقيقة وهو ما يندر وجوده فلابد ان شهوته تشوش عليه فى حكمه . وأدنى آثارها ان تزين له مايوافقها وتستميله اليه . وان كان من الذين لا منزلة

للحق من نفوسهم وهم السواد الاعظم ضربوا دون الحق استاراً من الاكاذيب والاوهام والاضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لا يبقي لشعاع من اشعة الحق منفذاً الى القلوب

وزد على ذلك ان التربية العلمية لم توجد فى العالم الغربى الا من زمن قريب وهى لا تزال الى الآن مفقودة فى الشرق . والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه ان يبنى أحكامه على مقدمات صحيحة. لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله . فهو لا يستحسن الشيء لانه مطابق للحق وانما يعتقد الشيء مطابقاً للحق لانه يستحسنه . بخلاف المتعود على الابحاث العلمية فان عقله لا ينخدع باحساسه فكلما أراد ان يشتغل بمسئلة طبيعية أو تاريخية مثلا جمع الحوادث التى تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التى يحكم بصحتها بناء على ماحصل من المقدمات غير صادر فى ذلك الا عن حب الحقيقة . فاذا عرض له ان يشتغل بالنظر في حال

جاره أو عدوه استعمل الطريقة التى ألفها وسلم بما تؤدى اليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه

ولقد وصل الغربيون الى درجة رفيعة من التربية واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين وكتبوا فى عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتباً نفيسة أودعوها آراءهم ونتائج بحثهم وامتدحوا ما رأوه مستحقاً للمدح وقدحوا في ما رأوه محلا للقدح غير ناظرين فى ذلك الا الى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه . أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ . ولهذا كان حكم كتابنا فى هذه الاشياء فى قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والالف والعادة . ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته وجد من خوف اللائمة عقلة فى لسانه تمنعه من اظهاره او حمله الرياء على اطالة القول فى تأييد مالا يعتقده فاذا وجد بينهم مخلص فى القصد

طالب للحق وجهر به كان نصيبه ان يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة - واشدهم اقتصادا فى ذمه يرميه بالطيش والخفة توهما منه ان الاعتراف بفضل الاجنبي مما يزيد طمع الاجانب فينا وان اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس في قلوبنا

ولا عذر لهم فى حكمهم هذا الا انهم قد جروا فيه على سنتهم فى سائر احكامهم . والا فهم مخطئون لان السبب فى طمع الاجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا وانما هو نفس ذلك الانحطاط الذى عرفه الاجانب منا قبل ان نحس به من انفسنا . فهم قد اكتشفوا ما كانت عليه بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ووقفوا على اخلاق المصريين وتفصيل احوالهم فى معيشتهم ايام الفراعنة وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئاً كثيرا لم يصل الينا الا منهم وقليل منا من يعرفه .فلا عجب ان يكونوا اسبق منا الى معرفة حالتنا الحاضرة نقصها وكمالها ثم لا خوف ان يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا

لان اليأس انما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة الينا خصوصا ان الامم لا تقف فى حياتهـا عند حد بل هى موضوع للتقلبات والتغيرات وتتوارد عليها احوال القوة والضعف والشدة والرخاء فلا تدوم على حال واذا عرضت عليها الشدة يوما لا تلبث ان تخرج منها بجدها واجتهادها وبديهى ان التوجه الى الاصلاح والكمال لا يكون الا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الامة بتأخرها عن الامم الاخرى وتقصيرها عن الوصول الى ما وصل اليه غيرهـا من غايات الكمال لا تنبعث الى التقدم ولا تتحرك لادراك غاية من هذه الغايات ولذلك كان تنبيه الامة الى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الامم اول فرض يجب القيام به كما ان شعور الامة بهذا النقص يعد اول خطوة فى سبيل ترقيها

لهذا لا نتردد فى ان نصرح بان القول باننا ارقى من الغربيين فى الاداب هو من قبيل ما تنشده الامهات

من الغناء لتنويم الاطفال

وغاية ما فى الامر ان تقدم الاوروبيين علينا من هذه الجهة لا يقام الدليل عليه بآثار مادية كتقدمهم فى العلوم والصنائع وانما يعرفه من خالطهم واختبرهم فى ظاهر شؤونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الادبية

ينقسم الاوروبيون كما تنقسم سائر الامم الى ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . فاما الطبقة الدنيا فاكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادىء العلوم وهم فى اخلاقهم الشخصية اشد فسادا من عامتنا فى اخلاقها

وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية ولكن يغلب عليها مايغرى به الغنى والبطالة . وتستولى عليها الشهوات . فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع

وسبب ذلك ان التمدن الذى يعيشون فيه يسهل

لهم ارضاء شهواتهم ويجدون من الوسائل لذلك مالا يوجد عندنا فابدعوا فى اختراع طرق التلذذ واعطوها الاشكال التى تجذب النفوس اليها . فالكهرباء مثلاالتى تضيء المدن وتنقل الاخبار وينتفع منها الزارع والتاجر والصانع والمسافر والمريض تقوم لارباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذى يناسبهم . وكذلك ترى لهم جرائد وكتباً وميادين تمثيل تختص بهم كما ان لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة

هذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لانها لاتستطيع محوه . فان هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية فهى مضطرة لان تقبل مايتبع هذه الحرية من الضرر لانها تعلم ان منافعها اكثر من مضارها

فوجود الفساد فى الغرب انما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الادبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن

ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الامة عاليها ودانيها تتهذب النفوس شيئاً فشيئاً وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها

غير انه لا يفوت القارئ ان هذا الفساد الذى ذكرناه فى الامم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التى هى الركن الاقوى لبناء الامم وما يتبع تلك الفضائل من بذل الانفس والاموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه فادنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه اذا دعى داع الى هجوم أو قيام لدفاع أو الى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لاجابة الداعى ويخاطر بنفسه ويبذل ماله الى ان يتم للامة ماتريد فاين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة فى الامم الغربية من حالة الامة الشرقية ؟

وأما الطبقة الوسطى فلا ريب انها أرقى من التى تقابلها عندنا نحن فى الحقيقة لا نعرف من أحوال

الغربيين الا بعض ما ظهر منها والكثير منا لا تزيد معرفته على ما عرف منها فى الشوارع والقهاوى وما قرأه فى بعض القصص والحكايات وليس من الحق ولا من العدل ان نظن ان هذه الظواهر هى صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الادب

من اراد ان يكون حكمه فيهم صحيحاً فعليه ان يلم بجميع مظاهر حياة تلك الامم ويقف على جميع الاحساسات والعواطف التي تحرك نفوسهم وهذا أمر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم واخلاقهم فاذا تمت للباحث هذه الشروط امكنه ان يعرف لم يهب رجل المانى حياته ويترك زوجته واولاده مساعدة لامة البوير . ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسئلة او كشف غامضة او فهم علة . وكيف ان سياسياً واسع الثروة عالى المقام يفنى زمنه فى تدبير الوسائل لاعلاء شأن امته وربما حرم نفسه راحة النوم فى ذلك السبيل . وما هو المحرك

للسائح الذي يقضي الشهور والسنين بعيداً عن اهـله وبلده ليكـتشف منابع النيل مثلا . وما هو الاحساس الذي يرضي القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع ما يتكبده من انواع العذاب وما يحيط به من الاخطار . وماهذا الوجدان الذي يسوق الغنى الى أن يبـذل آلافا من الجنيهات لجمعيه من الجمعيات الخيرية أو لعمل يعود نفعه على أمته أو على الانسانية

اذا علم السر في هـذه الصفات ومصادر هـذه الاعمال الجليلة ثم علم ما بين أعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة ونظر الى ما في معاملاتهم من الصدق في القول والغيرة على الحق ونمو احساس الشرف والميل الى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك انه ينتهي من هذا العلم الى نتيجة صحيحة وهي ان هؤلاء القوم على جانب عظيم من الادب والفضيلة . لان هذه الاعمال والاحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس كما تدل على نمو الاحساس بحاجة كل من أفراد الامة

الى الآخر . والترقى الادبى انما هو هذا التضامن بعينه

وليس هذا بغريب فان التقدم فى العلوم يؤدى الى
التقدم فى الآداب والاخلاق . لاريب ان الارتقاء
العقلى يصحبه الارتقاء الادبى دائما فان العلم هو المادة
التى يتغذى منها الادب . لاأقول انه لايوجد الادب
الا حيث يوجد العلم وانما اقول ان أدب الجاهل لا يمكن
أن يكون ثابتاً فى نفسه مثل ثبات الادب فى نفس العالم.
العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لاتطلب ان يسلم
بها من غير مناقشة بل تحتاج الى بحث وتعب وشغل
والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط
النفس الذى هو أهم أركان الادب . فاذا همّ شخص
اشربت نفسه العلم أن يعمل أمراً مخالفاً للآداب نزع منه
نازع الى النظر فى ذلك الامر وآثاره ومزاياه ومضاره
ثم رجع الى نفسه ليعلم هل يصح لها أو لا يصح ويندر
حينئذ أن يقدم عليه . اما الجاهل فان كان فاضلا لم
تكن الفضيلة فيه الاعادة مجردة وهو مستعد للاذعان

الى مايتأثر به حسنا أو قبيحا ومائل الى قبول مايرى اغلب الناس عليه بدون بحث فاذا انقطعت المادة مرة وذاق لذة الرذيلة انفلت قياد نفسه من يده واستحال عليه أن يرجع الى ما كان عليه من قبل

رأينا ان العلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس وأضيف على ذلك انه يعظم الاحساس الدينى . وليس فى ذكر هـذه العبارة خروج عن الموضوع لان الدين والادب يرجعان فى الحقيقة الى شىء واحد

وأجمل ماقيـل فى هذا المعنى ماأتى به الفيلسوف سبنسر فى كتابه الذى كتبه فى التربية أقتطف منه هنا بعض مايليق بالمقام . قال

« ليس العلم منافيا للاحساس الدينى كما يزعم كثير »
« من الناس . بل ترك العلم هو المنافى للدين. ولنضرب »
« لذلك مثلا فنفرض ان عالما من كبار المؤلفين يصنف »
« الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون »
« ألسنتهم بمدحه ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه الا »

« غلفها ولم يقرأوا شيئا منها ولم يجهدوا انفسهم يوما فى »
« فهم ما احتوت عليه . فماذا تكون قيمة هذا المدح »
« فى نظرنا؟ وما الذى نعتقده فى صدق هؤلاء المادحين »
« ان جاز لنا أن نقيس عظائم الاشياء بصغارها نقول »
« ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة . »
« وأدهى ما ياتون من تلك المعاملة انهم لا يكتفون »
« بان يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق »
« تلك الاشياء التى ينادون بانهـا من أبدع البدائع »
« واغرب الغرائب بل ينحون باللائمة على من يشتغل »
« بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من الاسرار »
« ولو فقهوا لعلموا ان اهمال العلم هو المضعف للاحساس »
« الدينى بل الماحق له . اما خدمة العلم فهى عبـادة »
« يؤديها القلب لأن خدمة العلم هى اعتراف ضمنى بان »
للمخلوقات قيمة عالية وان الذى أوجدها له شأن »
« اعلى ومقام اسمى . خدمة العلم هى احترام للكون »
« وصانعه يؤديه طالب العلم لا بمجرد الفم واللسان »

« ولكن ببذل وقته وفكره وعمله »

نستنتج مما سبق ان تقدم الغربيين فى العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيهم فى الآداب وان تأخر المعارف عندنا كان سبباً في انحطاط آدابنا

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجرى فيها بين الاب وابنه والاخ وأخيه والزوج وزوجته مما لا يحتاج بيانه الى تفصيل وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيها من الحسد والتباغض والخيانة والمنازعات والجرائم البهيمية التى يحار العقل فيها وهذه حوادث الوطن وما يرى فى روابط اهله من الانحلال وتفرقهم فى الرأى في احقر الشؤون وحرصهم على المال ان لا ينفقوه فى سبيل اى منفعة من المنافع العامة وضنهم بشىء من اوقاتهم للفكر فى اى مصلحة من مصالح بلادهم كل هذا برهان على انحطاط اخلاقنا. وما يكون عندنا من محاسن الاخلاق كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الارياف يرجع فى الحقيقة الى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة

ولهذا ترى الكثير من اعيان البلاد المشهورين باكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شؤونهم على خلاف مقتضى الكرم فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم وخصوصاً النساء منهم ويضيقون على عائلتهم فى المعيشة ويأتون من ذلك ماتأباه النفس الكريمة

وحال الامة التركيه لايختلف فى ذلك عن حالنا .

نعم فى بعض بلاد الريف هناك رقى فى الآداب والاخلاق وامتيازلها على الاخلاق والآداب المصرية. ولكن لا سبب لذلك الا ان التركى يعيش فى قريته بغاية السذاجة وعلى ضرب من سعة العيش فلا يجد مايحمله على ارتكاب مايخالف الآداب الحسنه . وهو بعيد عن كثير من الرذائل لانه يجهلها ولا يتصور وجودها . فاذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته ولا يجاريه أحد فى مسابقة أهلها الى مراتع اللذات ومسارح الشهوات وفاق أمثاله فى جميع العيوب الاخرى

وبالجملة نقول ان التمدن الاوربى ليس خيراً محضاً فان الخير المحض ليس موجوداً فى عالمنا هذا لانه عالم النقص . وانما هو الخير الذى أمكن للانسان ان يصل اليه الآن . فقد أتم به شيأ مما كان ينقصـه وارتقى به درجة من الكمال

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة فى جانب ماينتظر للنفس الانسانيه من الكمال فانه ينبغى لنا ان نقنع بها وعلى المستقبل ان يصل بأهله الى ماهو أعلى منها

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من ان الترقى يحصل فى بعض شؤون الامة ولا يؤثر فى سائرها . والصواب ان الترقى لا يكون ترقياً صحيحاً الا اذا وجد منه روح تظهر فى جميع شؤون الامة جزئيها وكليها حتى اذا شاء باحث ان يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجمعيات والافراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى كما تظهر فى الصنائع والتجارة

والزراعة والعلوم والفنون . وعلى الجملة يجد اثراً للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية

ذلك لان الحالة العقلية والحالة الادبية متلازمتان تلازماً تاما بل هما فى الحقيقة حالة واحدة وانما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التي ينظر منها اليها فان كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جديدة ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل فى نظام سلوكنا ولو كان العلم قاصراً على المعرفة فقط وليس له اثر فى العمل لفقد معظم اهميته ان لم نقل كلها

واما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهن مع الرجال وتمتعهن بالحرية واحترام الرجال لهن فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم

نعم يعد الكثير منا هذه العادات عيوباً ولكن اذا سئلت لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب

ان تكون نبيهة متعلمة ؟ لماذا يسمح لها ان تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام؟فجواب الواحدمنا لا يكون الا ان هذه هى عادتهم السيئة ولكن هذا الجواب لا يفيد شيئاً لانه يستدعى سؤالا آخر وهو لماذا كانت هذه العادة ؟ وهنا يتيسر له الجواب

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات امة متوحشة لسهل علينا ان نقول ان هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث وتلك الامة تعمل تحت سلطانها بدون ان تفتكر فيها وهى تجهل اصلها وارتباطها باحوالها كما تجهل الاثر الذى ينشأ عنها فى شؤونها

ولكن مما لا يسلمه العقل ان اهل اوربا وامريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم باسبابها ونتائجها ويصعب على العقل ان يظن ان علماءهم الذين يجهدون انفسهم كل يوم فى اكتشاف اسرار الطبيعة وان هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبنوا

أنواعها ووصفوها بادق أوصافها وربوها واستولدوها غفلوا عن هذه العادة واهملوها

والحقيقة انهم درسوها درساً تاماً كغيرها من المسائل الاخرى وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ولا أعلم ان واحداً منهم قام ينادى قومه يوماً ويحثهم على تغييرها . بل الكل متفقون علي ان حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق وان عدم الحجاب هو السر فى تقدم الغرب . وانما الخلاف يوجد بينهم فى تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه

هذا الاجماع أمر جدير بان يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون ان الملكية الخاصة هى سرقة وان الاموال يجب ان تكون ملكا شائعا بين جميع أفراد الامة . وظهر فيهم من يقول بالغاء نظام الزواج حتى تكون الملاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادى بهدم كل نظام وشرع ولا تعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق

الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم ان يطلب حجاب النساء . بل نرى الامر بالعكس فان المتطرفين من أرباب المذاهب يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها الى ان تصير مساوية للرجل . فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه ؟ ألأن الاوربيين لا يحبون التغيير فى عاداتهم ؟ كلا . فان التغيير عندهم هو قانون تقدمهم . ومن ألقى نظرة عامة فى تاريخهم من قرن واحد يجد انهم غيروا كل شىء عندهم : غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم وان كل ماوصلت اليه هذه الامور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت الى آخر

كذلك لا يصح ان يكون من أسباب هذا الاتفاق مايقال من ان الاوروبيين لا يقدرون شرف

النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم . هذا القول الذي سمعته من كثير من الناس لا يمكن ان يصدر الا من قليل الخبرة ناقص المعرفة لم يقف على شئ من احوال سكان تلك البلاد فهو لا يدرى منها اكثر مما يدريه من احوالنا سائح غربى يدور في الازبكية وما جاورها ويكتب من عوائدنا ما يراه من الطائفين حول تلك الاماكن المشهورة

اذن فما هو السبب ؟

السبب هو ان مسئلة حقوق المرأة وحريتها ليست فى الحقيقة مجرد عادة نرى الغربى يرفع قبعته اذا اراد التحية والشرقى يحرك يده ويضعها على رأسه فهذه عادة من العادات يمكن ان يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ولكن اهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الذى وضعت لاجله ولا يمكن ان يترتب عليها نتيجة فى الحياة الشخصية او العامة . أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم وتعيش مسجونة فى البيت أو متمتعة بحريتها وتخالط الرجال أو

لاتخالطهم وماهى حقوقهـا فى الزواج والطلاق وماذا يكون بشأنهافى العائلة وفى الامةفهذهأولامسئلةاجتماعية فهى بذلك مسئلة علمية ولاغرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيها

لهذا يلزمنا بدل ان نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها وهى انهم ضلوا عن الحق فى ما يختص بشاأن النساء عندهم - يلزمنا بدل ذلك ان نقف على افكارهم فى هذه المسئلة ونبحث فى آراءهم وفى اسباب النهضة العظيمةالتى قام بهاالرجال والنساء في هذاالقرن وندرس جميع نتائجها الحالية . وبعدذلك يمكن أن نكون لانفسنا رأيا صحيحا مؤسسا على النظريات العقليـة الصحيحة ومؤيداً بالتجارب والوقائع

خاتمة

حالة الافكار الآن فى مصر بالنسبة للنساء

ابتدأ المصريون فى هذه السنين الاخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية وبدت عليهم علامات التألم منها وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت اليهم اخبار الغربيين واختلطوا بهم وعاشروا الكثير منهم وعرفوا مبلغ تقدمهم فلما رأوا انهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التى وجدوا انفسهم محرومين منها والتى لا قيمة للحياة بدونها انبعث فيهم الشوق الى مجاراتهم والرغبة فى الحصول على تلك النعم. وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الافكار التى اعتقدوا انها تهدى الامة الى طريق النجاح . هذا يدعو الى العمل والنشاط وذاك الى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ اسباب الشقاق وآخر الى حب الوطن

والتفانى فى خدمته وغيره الى التمسك باحكام الدين وهلم جرا

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد وهو ان هذه الكلمات وما شاكلها لا يمكن ان يكون لهـا فى حياة الامة أثر يذكر الا اذا وصلت الى النساء وادركت النساء معانيها وتعلقت نفوسهن بحبها وتوجهت ميولهن اليها حتى يمكنهن بعد ذلك ان يضعن أولادهن باحسن الصور التى تمثل كمال الانسان فى اذهانهن

ذلك لان كل حال اجتماعيه لا يمكن تغييرها الا اذا وجهت التربيه نحو التغيير المطلوب ولانه لا يكفى فى الاصلاح مهما كان موضوعه مجرد حاجه اليه ولا امر تصدره الحكومه بحمل الناس عليه ولا خطبه تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ولا كتب تؤلف فى بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه. فان هذه الامور كلها لا أثر لها الا في ارشاد الامه وتنبيهها الى سوء حالها ولكنها ليست من الوسائل التى تغير الامم وتحولها من

حال الى حال . لان كل تغيير فى الامم انما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات وأخلاق وعادات لا تتولد في النفوس ولا تتمكن منها بالتربية أى بواسطة المرأة

فاذا أراد المصريون ان يصلحوا أحوالهم فعليهم ان يبتدأوا فى الاصلاح من أوله . يجب عليهم ان يعتقدوا بان لا رجاء فى ان يكونوا أمة حية ذات شأن بين الامم الراقية ومقام فى عالم التمدن الانسانى قبل ان تكون بيوتهم وعائلتهم وسطاً صالحا لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء فى ان البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع أعمالهم

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها فى العام الماضى ضرباً من الهذيان وحكم الفقهاء بانها خرق فى الاسلام وعدها الكثير من متخرجى المدارس مبالغة في تقليد الغربيين بل انتهى

بعضهم الى القول بانها جناية على الوطن والدين. وأوهموا في ما كتبوا ان تحرير المرأة الشرقية امنية من اماني الامم المسيحية تريد بها هدم الدين الاسلامي ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم الى غير ذلك من الاوهام التي يصغي اليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم ادراكهم منافعهم الحقيقية

ونحن لانريد ان نرد عليهم الا بكلمة واحدة : وهي ان الاوروبيين اذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم الا ان يتركونا لانفسنا فانهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة

هذا هو الحق الذي لاريب فيه . ومهما اجتهد قوم في اخفائه وغفل آخرون عنه فلا بد ان ينجلي للكل عاجلا أو آجلا . شأن الحقيقة في جميع الازمان

وكل ناظر في أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها مايدل على ان النساء عندنا قطعن دور الاستعباد ولم يبق بينهن وبين الحرية الاحجاب رقيق . اذ يرى

اولا ـ شعوراً جديداً عند المصريين بالحاجة الى تربية بناتهم بعد ان كانوا لا يعلموهن شيئاً

ثانياً ـ تخفيف الحجاب وذهابه شيئاً فشيئاً الى التلاشى

ثالثاً ـ تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة

رابعا ـ اهتمام الحكومة وبعض أبناء البلاد وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية باصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذى وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد فيه اموراً كثيرة تأتى باصلاح كبير فى العائلات المصرية واخص بالذكر منها ما اتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال

« هذا وانى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة ما »
« يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة فان »
« الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو »
« اثنان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ولا يزال »

« معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية »
« ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ولا يزال الفساد »
« يتغلغل فيهن وفى أولادهن ولا يمكن له ولا لهن »
« أن يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والامة غير »
« خاف على أحد »

وقد حدث فى هـذا العام ان كثيراً من النساء اللواتى حكم على أزواجهن بالاشغال الشاقة مؤبداً أو بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكين الى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة حيث لا سبيل لهن من الانفصال من أزواجهن ولا يوجـد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش أولادهن فاضطرت نظارة الحقانية الى استفتاء حضرة مفتى الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التى يمكن اتخاذها لازالة أسباب الشكوى فبحث حضرته فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى تشابهها واستنتج من فقه المالكية احدى عشر مادة وقدمها الى نظارة الحقانية واليك بيانها ننشرها افادة للفقراء

(المادة الاولى) اذا امتنع الزوج عن الانفاق على زوجته فان كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة في ماله فان لم يكن له مال ظاهر واصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضي في الحال وان ادعى العجز فان لم يثبته طلق عليه حالا وان اثبت الاعسار امهله مدة لا تزيد على شهر فان لم ينفق طلق عليه بعد ذلك

(المادة الثانية) ان كان الزوج مريضا او مسجونا وامتنع عن الانفاق على زوجته امهله القاضي مدة يرجى فيها الشفاء او الخلاص من السجن فان طالت مدة المرض او السجن بحيث يخشى الضرر او الفتنة طلق عليه القاضي

(المادة الثالثة) اذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضي له اجلا فان لم يرسل ماتنفق منه زوجته على نفسها او لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضي بعد مضى الاجل فان كان بعيد الغيبة او كان مجهول المحل وثبت انه لا مال له تنفق منه

الزوجة طلق عليه القاضى

(المادة الرابعة) اذا كان للزوج الغائب مال او دين فى ذمة احد أو وديعة فى يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين ولها ان تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة ويقضى بطلبها بلا كفيل وذلك بعد ان تحلف انها مستحقة للنفقة على الغائب وانه لم يترك لهـا مالا ولم يقم عنه وكيلا فى الانفاق عليها

(المادة الخامسة) تطليق القاضى لعدم الانفاق يقع رجعيا وللزوج أن يراجع زوجته اذا أثبت ايساره واستعد للانفاق فى اثناء العدة فان لم يثبت أيساره او لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة

(المادة السادسة) من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها ان ترفع الامر الى نظارة الحقانية مع بيان الجهة التى تعرف او تظن انه سار اليها او يمكن ان يوجد فيها وعلى ناظر الحقانية عند ذلك ان يبحث

عنـه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس وبعد العجز عن خبره يضرب لها اجل اربع سنين فاذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشراً بدون حاجة الى قضاء ويحل لهـا بعد ذلك ان تتزوج بغيره

(المادة السابعه) اذا جاء المفقود أو تبين انه حى وكان ذلك قبـل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقاً او بعد التمتع في حال مالو كان الزوج الثانى عالما بحياة المفقود فان ظهر ان المفقود مات فى المدة أو بعدها قبل العقد على الزواج الثانى أو بعده ورثته مالم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الاول فان مات بعد تمتعه وهو غـير عالم بحياة الزوج الاول لم ترث

(المادة الثامنه) من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض وثبت انه حضر القتال جاز لزوجته ان ترفع الامر الى ناظر الحقانيه وبعد البحث عنه وعدم

العثور عليه تعتد الزوجة ولها ان تتزوج بعد العدة ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره فان لم يثبت الا انه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما فى المادتين السابقتين

(المادة التاسعة) لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم ان ترفع الامر الى ناظر الحقانيه وبعد البحث عنه يضرب لها اجل سنة فاذا انقضت اعتدت وحل لها الزواج بعد العدة ويورث ماله بعد انقضاء السنة

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود اذا كان فى ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة والا رفعت الامر الى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها

(المادة العاشرة) اذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى رفع الامر الى قاضى المركز وعليه عند ذلك ان يعين حكمين عدلين أحدهما من اقارب الزوج والثانى من اقارب الزوجة والافضل ان

يكونا جارين فان تعذر العدول من الاقارب فانه يعينهما من الاجانب وأن يبعث بهما الى الزوجين فان اصلحاهما فبها والا حكما بالطلاق ورفعا الامر اليه وعليه ان يقضى بما حكما به ويقع التطليق في هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها

(المادة الاحد عشرة) للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج اذا كان يصلها منه ضرر والضرر هو مالا يجوز شرعا كالهجر بغير سبب شرعى والضرب والسب بدون سبب شرعى وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الازهر حيث أرسل الى حضرة المفتى الجواب الآتى:

«حضرة الاستاذ صاحب الفضيلة مفتى افندى»
«الديار المصرية أيده الله»

« باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ؛ الجارى»
« نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على احد»

« عشرة مادة مستخلصة من مذهب الامام مالك رضى »
« الله عنه المطلوب ابدأ رأينا فيه قد رأينا ما رأيتموه »
« ووقفنا عليه بالموافقة وشكرنا همتكم العلية على اعتناء »
« فضيلتكم بهذا الخطب الجليل وطيه المشروع المذكور »
« افندم » الفقير سليم البشرى

٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ المالكى خادم العلم
والفقراء بالازهر

هاتان المسئلتان مسئلة تعدد الزوجات ومسئلة تحويل المرأة حق الطلاق هما من اهم المسائل التى استلفتنا اليها الانظار فى كتاب تحرير المرأة ويسرنا أن عالما عظيما وفقيها حكيما مثل حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رأى انهما جديرتان بهمته فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ فى البيوت كل يوم تنبأنا بأن حالة المرأة المصريه آخذة فى التحسن والترقى .

غير ان هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية بل حدثت

فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعى القاضى بان كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه. والدليل على ان لا دخل لارادتنا فى هذه الحركة اننا عند ما قلنا بوجوب المحافظة عليها وأمدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادىء هـذا التحول فى نفوسهم وبدت بوادره فى بيوتهم

ولا عجب فى ذلك فان شأننا ان نتبع اهواءنا فى جميع اعمالنا

وقد اظلنا الوقت الذى يجب فيه ان نعرف ماذا نريد؟

ان كان مقصدنا من الحياة ان يعيش كل منا بضع سنين يقضيها فى اى حال كانت واستوى لدينا العز والذل والغنى والفقر والحرية والرق والعلم والجهل والفضيلة والرذيلة فأرى ان مامنح الى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لاداعى له. ولا أجد مانعاً من ان يتمتع الرجل بعدة نساء ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها فى

اليوم التالى ويسجن زوجاته وبناته واخواته وأمه وجدته اذا شاء

يوجد فى افريقيا وآسيا أمم عديدة يعيش النساء فيها مدفونات فى البيوت بحيث لا يرين انسانا ولا يراهنّ أحد . ويوجد بين هذه الامم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة الى حد انه متى توفى زوجها وجب عليها ان تعدم نفسها لكى لا تتمتع بالحياة بعده فما علينا الا ان نوجه انظارنا الى هؤلاء الامم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم فى الجهل والاحتجاب لعلنا نجد عندهم ما يقوى حجتنا فى تشديد الحجاب والحجر على المرأة

اما اذا كان المقصد هو ما نقرأه ونسمعه كل يوم من أن المصريين يريدون ان يكونوا امة حية راقية متمدنة فلنا أن نقول لهم :

يوجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التى تشتكون منها وتصعد بكم الى أعلى مراتب التمدن كما تشتهون وفوق ما تشتهون ألا وهى تحرير نسائكم من قيود

الجهل والحجاب . هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها وليس لنا فضل في اختراعها فقد استعملتها أمم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها . انظروا الى الامم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة . تجدوا ان تربية المرأة الامريكية واخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية واخلاق وآداب المرأة الفرنساوية وان هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية وان المرأة التليانية لا تشبه فى شىء من ذلك المرأة السويدية ولا الالمانية . ولكن جميع هؤلاء النساء على اختلاف الاقليم والجنس واللغة والدين بينهن اتحدن واجتمعن فى امر واحد وهو انهن يملكن حريتهن ويتمتعن باستقلالهن

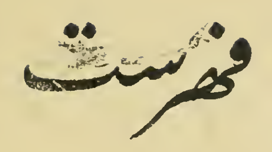
هذه الحرية هى التى أخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم . فلما أضيف عليها التعليم وجهت ارادتها الى ان تشترك مع الرجال فى تقدم الجمعية التى تنتسب اليها . وتم هذا الاشتراك باتيانها اعمالا مفيدة تختلف بلا ريب عن أعمال الرجال ولكن لا تنقص عنها فى

الاهمية . فالتاجر الذى يقضى نهاره فى حانوت ليبيع بضاعته والكاتب الذى يمضى بضع ساعات فى ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير افادة الى مصلحة أخرى والمهندس الذى يبنى قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد والطبيب الذى يقطع عضواً ليحيي باقى اعضاء الجسم والقاضى الذى يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الناس جميع هؤلاء وغيرهم لا يوجد منهم واحد يحق له أن يدعي أن عمله يفيد الهيئة الاجتماعية اكثر من عمل امرأة تهدى الى الجمعية رجلا وتربيه على أن يكون نافعاً لنفسه ولاهله ولأمته

نحن لا نقول لكم كما يقول غيرنا اتحدوا وكونوا عوناً بعضكم لبعض أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى اخلاقكم أو أخدموا أهلكم ووطنكم أوما يماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء . نحن نعلم ان تغيير النفوس لا ينفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى . وانما يتم كما

ذكرناه باعداد نفوس الناشئين الى الحال المطلوب احداثها ذلك هو السير الطبيعى البعيد الامد المحفوف بالمصاعب. ولكن اسهل المصاعب هى التى تنتهى بالفوز والنجاح وأقرب الطرق هى التى توصل الى المقصد

« انتهى »



صحيفة




UNIVERSITY OF TORONTO
3 1761 00450792 7